بيتر هاندكه

عن الموسيقى



نوبل 2019

ترجمة: د. منى محسن



مكتبة | ٩٧٣
سُر مَن قرأ

عن الموسيقى

بيتر هاندكه

د. منى محسن/ مدرس بقسم اللغة الألمانية بكلية الألسن جامعة عين شمس. حصلت على الدكتوراة عام 2018 عن التلطف اللغوي في الدعاية السياسية في لافتات الانتخابات في النمسا 2008 ومصر 2011-2012. وقامت بالمشاركة في ترجمة مجموعة "فنان الجوع" القصصية.

عن الموسيقى
طبعة 2020
رقم الإيداع:2019/28566
الترقيم الدولي: 978-977-821-130-6

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This is full translation of the book "Versuch über die Jukebox" by Peter Handke © Suhrkamp Verlag Frankfurt am Main 1989.



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بيتر هاندكه

عن الموسيقى

مكتبة | ٩٧٣
سُر مَن قرأ

ترجمة

د. منى محسن



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

هاندكه، بيتر، ١٩٤٢-

عن الموسيقى / بيتر هاندكه، ترجمة: منى محسن

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠١٩

١٠٠ ص، ٢٠ سم

تدمك ٦-١٣٠-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- الموسيقى

أ- محسن، منى (مترجم)

ب- العنوان

٧٨٠

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٨٥٦٦

«أعطِ لكل وقت وقته!»

(حكمة إسبانية)

«ورأيتها تقف هناك».

أغنية لـ جون لينون وبول مكارتني.

توجه إلى محطة الحافلات في مدينة برغش الإسبانية لشراء تذكرة سفر لمدينة سوريا بنية الشروع أخيرًا في الكتابة عن مشغل الأغاني (الجوكبوكس)، التي طال الإعداد لها. كان الموقف الذي تنطلق منه الحافلات إلى وجهتها بداخل محطة داخلية مسقوفة. في الصباح، ومع انطلاق العديد من الحافلات في ذات التوقيت باتجاه مدريد وبرشلونه وبلباو، كانت أرصفة الموقف لا تزال تعج بالمسافرين، ولكن عند حلول وقت الظهيرة لم يكن هناك سوى تلك الحافلة المتجهة إلى سوريا وبضعة مسافرين متناثرين من حولها. كان المكان المخصص للأمتعة داخل الحافلة على شكل نصف دائرة لا يزال مفتوحًا ويكاد يخلو من الحقائب. عندما توجه للسائق ليناوله حقيبته، أم كان ذلك الرجل هو الكمسري؟ صاح الرجل «سوريا!» وهو يربت على كتفه بخفة، إلا أن المسافر لا يزال يرغب في التعرف بعض الشيء على المكان، فأخذ يسير جيئة وذهابًا على رصيف المحطة إلى أن يحين وقت المغادرة. لم يعد أحد هنا في هذا الخواء يرى تلك البائعة الجائلة، التي كانت تشق طريقها بين جموع المسافرين منذ الصباح. تخيلها تتناول طعامها في مكان ما بجوار ساحة سوق برغش، وعلى طاولتها كأس بها نبيذ أحمر داكن اللون ورزمة مبعثرة من أوراق يانصيب الكريسماس.

رأى على رصيف المحطة الإسفلتي بقعة شحم كبيرة. لا بدَّ أن ماسورة العادم الخاصة بواحدة من الحافلات التي اختفت منذ

فترة عن الأنظار قد لفظتها أثناء انتظارها. كانت الطبقة السوداء سميكة للغاية وتشوبها آثار الكثير من نعال أحذية مختلفة وعجلات حقائب سفر. حتى هو أيضًا قد خطى على تلك البقعة بنفسه، حتى يضيف أثر حذائه للآخرين، وكأنه قد يجلب بذلك حسن الطالع لما انتوى القيام به، العجيب في الأمر هو أنه قد أقنع نفسه من ناحية أن فكرة «الشروع في الكتابة عن مشغل الأغاني» هي أمر تافه وعابر، إلا أنه من ناحية أخرى كان يشعر بالتوجس، وذلك كما اعتاد دومًا مع كتاباته السابقة، فكان يهرب من ذلك الشعور بلجوئه اللاإرادي للبحث عن إشارات وعلامات على حسن الطالع، ورغم أنه لم يكن حتى يثق بصحة تلك الإشارات ولو للحظة، إلا أن ذلك لم يُثنِه الآن عن أن يتذكر على الفور من باب لوم الذات ملحوظة عن الشخصية المؤمنة بالخرافات وردت في كتاب ثاوفرسطس عن الخصائص، والذي كان يقرأه للتو وهو في طريقه إلى هنا: إن الإيمان بالخرافات هو صورة من صور الجبن أمام ما هو إلهي. على كلٍّ اتخذت آثار نعال تلك الأحذية المختلفة هنا شكل علامات لأسماء تجارية متداخلة، بيضاء تعلو أخرى سوداء، ومن ثم تختفي جميعها خارج تلك البقعة الزيتية؛ شكلت العلامات المتداخلة صورة يمكنه اصطحابها بينما يواصل رحلته.

حتى فكرة البدء في الحال في الكتابة عن مشغل الأغاني في مدينة سوريا كانت أمرًا خططً له فعليًا منذ فترة طويلة. فعلى

الرغم من أن الآن بداية شهر ديسمبر، إلا أنه في الربيع الماضي قد صادف أثناء رحلته الجوية في سماء إسبانيا تقريرًا يتناول تلك المدينة النائية في ربوة قشتالة. كانت سوريا بعيدة عن الطرق التي يتوافر عليها وسائل المواصلات وذلك بسبب موقعها، كما أنها تكاد تكون خارج صفحات التاريخ منذ ما يقرب من ألف عام، ولذا تعد من أكثر الأماكن هدوءًا وسكونًا في شبه الجزيرة بأكملها. تحوي المدينة الكثير من المباني سواء في وسطها أو على أطرافها، تقف وحيدة على تلك الأرض الجدباء، ويسيطر الطراز الرومانسكي على المنحوتات والتماثيل الموجودة بها كافة. بالرغم من صغر مساحة مدينة سوريا إلا أنها تعد عاصمة المقاطعة التي تحمل أيضًا الاسم نفسه، وقد عاش بها الشاعر أنطونيو ماتشادو في أوائل القرن العشرين، والذي عمل آنذاك مدرسًا للغة الفرنسية، وكان لا يزال حديث العهد بالزواج ولكن سرعان ما فارقت زوجته الحياة. كشف ماتشادو في أبيات شعره الكثير عن تفاصيل تلك المنطقة، مثل أنها تقع على ارتفاع يربو على ألف متر من سطح البحر. ينبع نهر الدويرة من قلب أعماقها ومن ثم يتدفق حول أرضها ببطء شديد، وقد وصفه موتشادو وصفًا تصويريًا في أبيات شعره، فذكر أنه من على ضفتي النهر تأخذك الطرق الرحبة فتقودك إلى الطبيعة البكر حيث ينساب غناء البلابل الصدّاحة أعلى أغصان شجر الحور الرفيعة وتعلو الجدران الصخرية بها وتظل تقترب من بعضها وتضيق حتى

تصبح أشبه بالأخاديد...

كان ينتوي من خلال الكتابة عن مشغل الأغاني أن يوضح أهمية ذلك الشيء في المراحل المختلفة من حياته كشاب، تلك التي انتهت منذ فترة طويلة فلم يعد شابًا الآن. لم يعلم تقريبًا أي أحد من معارفه -الذين اعتبرهم في الشهور الأخيرة أداة لدراسة السوق- شيئًا عن نشأة هذا الجهاز وبداياته، لم يصل تقريبًا إلى أي شيء عن طريق سؤالهم، حيث اكتفى البعض منهم، ومنهم بالطبع أحد القساوسة، بهز الكتف أو الرأس متعجبين من أن تكون مثل تلك الآلة محط اهتمام أحد من الأساس، في حين اعتقد البعض ان كلمة «الجوكبوكس» التي يقصد بها مشغل الأغاني تعني زعنفة! وكان هناك من لم يسمع مطلقًا باسم ذلك «الجوكبوكس» واعتقد بالبداية أنه يقصد صندوق الموسيقى أو مشغل الموسيقى، إلا أن مثل هذا الجهل وعدم الاكتراث بمشغل الأغاني زاده حماسًا على البدء في الكتابة عن هذا الشيء أو عن ذلك الاتهام بالانشغال به، بالرغم من ذلك الشعور بخيبة الأمل الذي راوده في البداية بعد تلك الإجابات التي تدل على أن الجميع ربما لم يعايش ما عايشه هو يومًا ما، لا سيّما أن الأمر بدا وكأن عصر استخدام مشغل الأغاني قد ولى وانتهى كليًّا في معظم البلدان وغالبية الأماكن بصورة أو بأخرى. (ربما كان هو نفسه قد جاوز بصورة تدريجية السن المناسبة للوقوف أمام الماكينات وضغط الأزرار).

قام بكل تأكيد قبل الشروع في الكتابة بقراءة كل ما يندرج تحت مسمى كتابات عن مشغل الأغاني، وقد انتوى بالطبع نسيان الغالبية العظمى مما قرأ على الفور، فالمفترض ألا يعكس ما يكتبه سوى رؤيته الخاصة للأمر. لم يجد في ما عدا تلك الكتابات سوى القليل عن ذلك الجهاز. إلا أن المؤَلِّف الأهم الذي تناول الأمر حتى الآن هو ذاك الذي صدر في عام 1984 في مدينة دي موين الأمريكية التي تقع بعيدًا في وسط غرب الولايات المتحدة الأمريكية. جاء الكتاب تحت عنوان «*دليل التعريف الكامل عن مشغل الأغاني الخاص بشركة ورليتزر*»، للمؤلف ريك بوتس، وكان كمّ المعلومات التي قد يستخلصها القارئ في النهاية عن تاريخ ذلك النوع من مشغلات الأغاني تقريبًا كما يلي:

شهدت الحانات التي أطلق عليها حينها اسم speakeasy[1] في فترة العشرينيات بداية استخدام مشغلات الأغاني لأول مرة، وقد شهدت تلك الفترة حظر تداول الخمور في الولايات المتحدة الأمريكية. ليس من المؤكد ما إذا كانت كلمة «الجوكبوكس» (مشغل الأغاني) يرجع أصلها إلى كلمة « Jute» والتي تعني نبات القنب، أم إلى فعل «to jook» ذي الأصل الإفريقي، والذي من المفترض أن يعني يرقص. على كلٍّ كان السود يلتقون آنذاك بعد الانتهاء من العمل في أماكن الرقص أو مواقع القنب الموجودة

1 - كانت تلك حانات تتداول الخمور بشكل غير قانوني.

داخل حقول القنب في الجنوب، ومن ثم يستمعون إلى مشغل الأغاني لأغنية النيكل الأخير لبيلي هوليداي وأغاني جيلي رول مورتون ولويس آرمسترونج، الذين لم يكن مسموحًا لهم بالعزف والغناء في برامج الإذاعة، التي سيطر عليها ذوو البشرة البيضاء في تلك الفترة. بدأ العصر الذهبي لمشغل الأغاني تزامنًا مع إلغاء قرار حظر الكحوليات في فترة الثلاثينيات، التي شهدت ظهور الحانات. شهدت تلك الفترة أيضًا تواجد مشغل الأسطوانات حتى داخل متاجر التبغ وصالونات الحلاقة، ولم يكن حجمه ليتجاوز حجم خزينة الدفع المثبتة بجواره على البار. انتهى عهد الازدهار ذلك لأول مرة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، وذلك جراء قلة توافر المواد الخام التي يصنع منها مشغل الأغاني، لا سيّما البلاستيك والصلب؛ فحل الخشب كبديل للصلب، ومن ثم توقف تصنيعه بالكامل فترة اندلاع الحرب لاقتصار التصنيع وتوجيهه بالكامل لصالح التسليح، وعليه قام رواد صناعة مشغلات الأغاني مثل شركتي ورليتزر وسيبورج بالتوجه لصناعة معدات إزالة الجليد الخاصة بالطائرات والأجزاء الإلكتروميكانيكية.

كانت هناك قصة أخرى عن شكل مشغل الأغاني، والتي أرادوا من خلالها الخروج عن ذلك الإطار الذي لم يكن دومًا مفعمًا بالألوان في ذاك الوقت. كان بطل تلك القصة هو صاحب الفكرة ومقترحها: بينما كان الهيكل الأساسي لصندوق الموسيقى الذي تصنعه شركة ورليتزر يتخذ الشكل النصف دائري للقوس، كانت

شركة سيبورج تصنعه في المعتاد في شكل صندوق مستطيل تعلوه قبة، حتى إن الأمر بدا وكأنه قانون ينص على أنه ليس من المسموح أن يشذ أي إصدار جديد عن ذلك الشكل المذكور، فكان من اليسير التعرف على مصنع أي مشغل للأغاني من خلال شكل هيكله الخارجي. عند ظهور إصدار خاص متفرد الشكل من مشغلات الأغاني في صورة مسلة، ولم تصمم نهايتها العلوية في شكل رأس أو شعلة حتى، وإنما في صورة غطاء يحوي بداخله مكبر الصوت، فكان الصوت ينساب من الجزء العلوي للجهاز، لاقى ذلك الإصدار فشلًا ذريعًا، لذا لم يحدث إدخال لأي تعديل في الإصدارات المتنوعة التالية لمشغلات الأغاني سوى في شكل الأضواء المنبعثة من الجهاز والإطار الهيكلي الخاص به من الخارج، مثل وجود علامة طاووس في المنتصف، تغيير الألوان بشكل مستمر واستخدام أسطح بلاستيكية للجهاز. كان السطح الخارجي للجهاز ملونًا حتى هذا الوقت بصورة بسيطة، أما الآن فقد أصبحت الألوان رخامية، مع وجود شرائط للتزيين. كان الجهاز مطعَّمًا بالبرونز المقلد ومن ثم أصبح الآن مطليًّا بطبقة من الكروم. كان يتخذ شكل القوس والآن أصبح ذلك القوس مزينًا بخراطيم مضيئة تتحرك بداخلها دومًا فقاعات مائية بعضها صغير والآخر كبير الحجم «يحمل توقيع باول فولر». وهنا يكتشف القارئ والمتتبع لتلك القصة الخاصة بشكل مشغل الأغاني أخيرًا بطل تلك القصة، ويدرك أنه كان يرغب لاإراديًّا منذ

تلك اللحظة الأولى التي اكتست بالاندهاش في التعرف على ذلك الشيء العظيم اللامع القابع في أي حانة مظلمة.

اتجهت رحلة الحافلة من برغش تجاه الشرق إلى سوريا عبر هضبة مسيتا الخاوية تقريبًا من البشر. بدت الحال وكأن الناس التي تكدست بالحافلة على الرغم من توافر الأماكن الخالية هم أكثر عددًا من البشر بالخارج في تلك المرتفعات الجدباء. مالت السماء للون الرمادي واكتست بالضباب، أما الحقول القليلة المتواجدة بين الصخور والأرض الخصبة فكانت قاحلة. كانت هناك داخل الحافلة فتاة صغيرة بوجه جاد وعينين واسعتين حالمتين أشبه بما يمكنك رؤيته في السينما الإسبانية أو المتنزهات. كانت منهمكة في قرقضة وأكل لب بذور عباد الشمس دون توقف، مما خلف أسفلها الكثير من القشور الملقاة على الأرض، كما كانت هناك مجموعة من الفتيان الذين يحملون حقائب رياضية وكانوا دومًا يرسلون للسائق في الأمام الجديد من شرائط الموسيقى الخاصة بهم ليشغلها، وكان يتقبلها بكل رحابة بدلًا من الاستماع إلى البرامج الإذاعية في فترة بعد الظهيرة، والتي كانت تدوي من السماعات الموجودة أعلى كل مقعدين متتاليين. وهناك أيضًا زوجان كبيران في السن جالسان في صمت مطبق دون حراك، حتى إن الرجل لم يشعر أبدًا عندما مر أحد الصبية من أمامه مرارًا واصطدم به دون قصد، أو حتى عندما وقف أحد الصبية وهو يحاول الاقتراب من البقية للتحدث فقام بالاستناد إلى

المسند الخلفي لمقعد الرجل العجوز ولوح بيديه في الوقت نفسه أمام وجه العجوز. تحمل العجوز كل ذلك دون أن يتحرك قيد أنملة، حتى إنه لم يُنحِّ جانبًا ولو لمرة الجريدة التي يمسك بها، والتي كانت أطراف صفحاتها تهتز أسفل تيار الهواء المنبعث من ذلك المكيف الوهمي أعلاها. بعد أن نزلت الفتاة من الحافلة سارت وحدها بالخارج في تلك الربوة الجرداء، وهي تلتحف بمعطفها لتواصل سيرها بمفردها في تلك البادية التي تخلو من الطرق، ومن أي منزل يمكن رؤيته على مرمى البصر، تاركة خلفها كومة من القشر على أرضية الحافلة أسفل المقعد الذي كانت تجلس عليه، إلا أن تلك الكومة كانت أقل مما كان متوقعًا. في ما بعد بدأت تظهر مجموعات من أشجار البلوط النحيلة في الربوة، كانت تلك الأشجار ضئيلة الحجم وأخذت أوراقها الرمادية المتساقطة الذابلة عن آخرها تهتز بجانبها. بعد عبور الحافلة لممر لم ينتبه له أحد سوى المسافر، الذي لاحظ كلمة بالإسبانية، لم يفهم معناها سوى بمساعدة قاموس الجيب الذي يحمله معه وكانت هي نفس الكلمة التي تقابلها كلمة ميناء. كان ذلك الممر يمثل الحدود بين مقاطعة برغش ومقاطعة سوريا. وهنا ظهرت مناطق بالأعلى ملأى بنبات الصنوبر البري ذي اللون البني اللامع، والذي نبت أعلى الصخور، كان الكثير منها أيضًا مجتثًّا من التربة السطحية الرقيقة أو متناثرًا في المكان وكأن عاصفة أصابت المنطقة. وبالقرب من هذا المكان يفسح جانبًا الطريق

المجال مرة أخرى لتسيطر الصحراء الجدباء من جديد. كانت قضبان السكة الحديدية الصدئة تتقاطع على فترات منتظمة على طريق السكة الحديد المهجور الذي كان يربط بين المدينتين، والذي تمت في الغالب سفلتته بشكل خاطئ، فتجد في بعض الأماكن طبقات إسفلتية متراكمة على بعضها، وفي مكان آخر لا تجد أثرًا لطبقة الإسفلت عليه. ارتطمت الحافلة بلافتة تشير إلى إحدى الحارات والمعلقة على جدار أحد المنازل بقرية من قرى مقاطعة سوريا والتي تقع في منطقة منزوية عن الطريق السريع خلف المرتفعات الصخرية. كان على السائق دومًا الانعطاف بالحافلة إلى هذه القرية لإنزال الركاب ومن ثم يعاود الرجوع للطريق مرة أخرى. كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه في القرية هو أيادي المقامرين داخل حانة القرية والذين يمكن رؤيتهم من نافذة الحانة قابعين بالداخل.

كان الطقس باردًا بسوريا؛ ربما أكثر برودة مما كانت عليه الحال في برغش، وقارسًا بالمقارنة بالطقس في سان سيباستيان المجاورة للبحر، والتي نزل بها عند وصوله بالأمس إلى إسبانيا، إلا أنه لم يرَ أي تساقط للثلوج، التي تمنى أن تكون رفيقته في مغامرته هنا إذا ما جاز التعبير، وإنما مجرد أمطار خفيفة. عند وصوله لمحطة الحافلات، تلك المكشوفة للتيارات الهوائية، قام بتسجيل مواعيد مغادرة الحافلات المتوجهة لمدريد أو على الأقل لمدينة سَرَقُسطة. غادر المحطة إلى الطريق بالخارج، ذلك

الذي يقع على أطراف المدينة. ظهر على جانبي الطريق أنقاض منازل متداعية صغيرة وهياكل خرسانية لمبانٍ إنشائية لم تكتمل وبادية مليئة بالحطام (لم تعده بشيء آخر سوى ذلك). تناثر الوحل من أسفل إطارات المقطورات العملاقة التي أثارت صخبًا في المكان. كانت جميعها تحمل لوحات بالإسبانية، وفجأة رأى بالأسفل لوحة سيارة مكتوبة بالإنجليزية، ومن ثم لمح شعارًا دعائيًا على مشمع. شعر منذ النظرة الأولى أنه فهمه حتى وإن لم يتمكن من ترجمته حال رؤيته للوهلة الأولى. أحس في الحال في تلك اللحظة بالحنين لوطنه. وقد راوده من قبل شعور مشابه لذلك أثناء إقامته التي طالت مدتها في مثل تلك المدينة الإسبانية الغريبة أيضًا، حيث لا يفهم أي شخص في المنطقة المحيطة أي لغة أجنبية ولا تتوافر الصحف الأجنبية أيضًا. كان يبحث عن ملاذ له هناك في بعض الأحيان داخل المطعم الصيني، والذي على الرغم من أنه يفهم فيه قدرًا أقل بكثير مما يقال أمامه، إلا أنه كان يشعر هناك بالارتياح تجاه لغته الإسبانية الركيكة.

بدأ الظلام ينسخ خيوطه من حوله، وأمست ملامح المكان غير واضحة. لا تشير لافتات الطريق سوى لاتجاه المدن الكبيرة البعيدة مثل برشلونة وبلد الوليد. كان يهيم في الشوارع بأمتعته الثقيلة. ظل يسير في طريقه لفترة طويلة وكان ينتوي حتى تلك اللحظة البقاء في سوريا حتى بداية العام الجديد. كان يعلم في الغالب من قبل أن منطقة وسط المدينة وخاصة في تلك المدن

الإسبانية شبه البعيدة عن الأنظار تكون في مكان ما بالأسفل خلف تلك البادية الخالية من السكان قابعة بين جنبات وديان الأنهار الجارية. قد يقضي الليلة هنا على كل حال، كان عليه من ناحية أن يتحقق من المكان حتى يكون منصفًا في حكمه عليه. شعر أن في هذا نوع من الواجب، لأنه بالفعل موجود هنا الآن. (في تلك اللحظة بينما هو ينقل حقائبه من يد لأخرى مع كل بضع خطوات ليتفادى مرارًا وتكرارًا سكان المنطقة المحليين، الذين بدؤوا للتو سيرهم بتبختر وتباهٍ، إلا أنه لم يكن ينجح في ذلك) ومن ناحية أخرى فقد كان لديه الوقت الكافي للكتابة عن مشغل الأغاني ولأي شيء بشكل عام، وكان هذا ما يقوله لنفسه الآن ويردده في أغلب الوقت، ولكن هذه المرة باستخدام الفعل اليوناني الذي تعلمه من نصوص ثاوفرسطس: S-cholazo والذي يعني لديه وقت.

لم يفكر حينها سوى في الهرب. عرض عليه صديق من هنا ومن هناك عندما نوى الحصول على بيت ثانٍ أو منزل ثالث العديد من المنازل، وهو الذي ارتحل لسنين وظل بلا مأوى حتى الآن. وها هو الآن هنا في بداية فصل الشتاء خاوي الوفاض يحيطه السكون التام وفي الوقت نفسه تحيطه الحضارة التي يألفها، لا سيّما تلك اللغة التي تذكره بطفولته، فكانت هي دافعه ومهدئه في الوقت نفسه، متأهب للأفق الذي يمكن الوصول له في أي وقت سيرًا على الأقدام. حالت فكرة الهروب التي تراوده بينه وبين أي

محاولة للعودة. أصبح سماعه للغة الألمانية هنا أمرًا مستبعدًا الآن، أو حتى وجود مكان مثل مدينة لا روشيل الفرنسية التي مكث بها منذ عدة أيام وعلى الرغم من إطلالتها على المحيط الأطلسي المتسع ومنازلها البيضاء المنخفضة ودور السينما الكثيرة وشوارعها الجانبية الخالية من السكان وبرج الساعة الموجود في الميناء القديم الذي يذكره بجورج سيمنون وأحداث مؤلفاته التي دارت هنا، شعر فيها بأنه غريب بسبب اللغة الفرنسية التي يتحدثونها هناك بطبيعة الحال. ولم يفكر حتى في مدينة سان سيباستيان ذات الهواء الدافئ للغاية وخليجها الذي على شكل نصف دائرة، والذي يطل على خليج البسكاي الثائر في أغلب الوقت، حيث رأى بأم عينيه كيف يفور زبد النهر عكس التيار ليلًا على ضفاف نهر رومية في منطقة الباسك. كانت أمواج النهر في المنتصف أشبه بقوة تلك التي تراها في البحار.

وجد في إحدى الحانات، حتى وإن كانت بلا إضاءة وباردة وكأنها خارج الخدمة، مشغل أغانٍ. يبدو أنه صناعة إسبانية لكنها غير بارعة. يكاد يكون بلا تصميم خارجي. ربما كان في ذلك إرغام له يمنعه من الرجوع عن ذلك الفرار. كان عليه أن يواصل سبيله عبر القارة. ربما كان ذلك يجبره على قضاء بعض الوقت دون الالتزام بواجبات أو ارتباطات، حتى يتفرغ للكتابة بعد أن مر بفترة كثر فيها انشغاله بالعمل. ولكن هل يستلزم ذلك الأمر تصريحًا من الأساس يتوجب عليه استخدامه بانتظام

للتهرب من موقف غير معتاد مثل قسوة الطقس التي يعايشها الآن بالإضافة إلى الأوضاع المعيشية اليومية، مع التأكيد أثناء ذلك على أنه يوجد أمر آخر إضافي عليه الانشغال به بجانب الكتابة، وهو نوع من أنواع استكشاف وقياس كل مكان غريب والسماح لنفسه بالدخول والتعايش فيه وحده دون مرشد وبلغة من المفترض أن تكون مجهولة بالنسبة له بقدر الإمكان في البداية؟ إلا أنه لم يعد يرغب الآن في الهرب بعيدًا عن هذه المدينة فقط، وإنما أيضًا عن موضوع كتابته. فكلما اقترب من سوريا -المكان المزمع لبدء الكتابة- تعاظمت رغبته في إلغاء فكرة الكتابة عن مشغل الأغاني.

أوشك عام 1989 على الانقضاء. ولأن الكثير من الأمور كانت تتغير في أوربا في تلك الفترة من يوم لآخر ومن بلد لأخرى بمنتهى السهولة، حتى إنه تخيل لو كان هناك شخص ما لم يطالع أخبار العالم من حوله سواء كان ذلك بإرادته الحرة، أو لأنه محاصر على سبيل المثال داخل عمله البحثي، أو مر بحادث أفقده الوعي لشهور، ومن ثم قرأ جريدة للمرة الأولى سيظنها إصدارًا خاصًا مليئًا بالتدليس عن أحلام ورغبات الشعوب المستعبدة والمنفصلة في القارة والتي تحولت بين ليلة وضحاها إلى حقيقة واقعة. وبالرغم من أن ذلك العام -الذي كانت بدايته بلا أحداث وأوله كآخره- افتقد تقريبًا لأي أحداث حيوية، حتى بالنسبة له هو أيضًا، فلم يعُق مسار العام سوى بعض الأحداث التاريخية

والاحتفال بذكراها على أقصى تقدير. إلا أنه كان عام القصة: كان يا ما كان، وكأن ذلك الاستهلال المستخدم في قص الحكايات يبدو كحكاية قصصية في حد ذاته ودونًا عن كل المقدمات الأخرى المألوفة، فهو الأوقع والأشد أثرًا، بل هو القصة الأكثر واقعية والأكثر خرافية. منذ بضعة أسابيع قام أحد معارفه في ألمانيا وهو منفعل جراء فكرة سقوط سور برلين والذي رغب في أن يظل «شاهدًا على التاريخ» بالإلحاح عليه لمرافقته في رحلته، وذلك لضرورة وجود «متخصص في الصور واللغة يشهد ويوثق» مسار الرحلة. وماذا عنه هو؟ لقد جعل في السابق من «عمله ودراسته وتطويره لذاته» أولوية، على الفور وبشكل غريزي وبلا تفكير (وفي مخيلته يرى بالطبع في صباح اليوم التالي أول نظم قصائدي عن شاهد التاريخ الشعري منشورًا في إطار منمق في إحدى الصحف التي اعتادت تأييد الدولة، وفي اليوم الذي يليه يرى في الصحيفة أيضًا أول نص غنائي عنه). والآن وبعد أن أصبحت القصة هي أعظم حكاية قصصية في العالم وفي تاريخ البشرية ونظرًا لظاهر الأمور استمرت القصة واستمر حكيها وسحرها يومًا تلو الآخر (أم كان ذلك مجرد نوع من قصص الأشباح؟) هل يرغب فعلًا في الهرب بعيدًا في تلك المدينة التي تحيطها البوادي والصحاري الصخرية وغفل عن ذكرها التاريخ والجلوس أمام شاشة التلفاز، حيث يسري صداه في كل مكان ومن ثم يطبق صمت جماعي لمتابعة نشرة الأخبار المحلية،

التي تتناول مصرع أحدهم بعد سقوطه من أعلى سقالة البناء، ويحاول الكتابة عن شيء غريب عن العالم كمشغل الموسيقى باعتباره أمرًا هامًّا «للهاربين في العالم»، على حسب قوله الآن، ذلك الشيء الذي لم يتجاوز كونه مجرد جهاز فضله الأمريكيون، مثلما أوضحت المصادر التاريخية، لا سيّما لفترة قصيرة، ألا وهي أمسيات أيام السبت بعد انتهاء الحرب. ولكن هل يوجد هناك في الوقت الحاضر، نعم الوقت الحاضر فكل يوم جديد هو تأريخ للتاريخ، هل هناك أحمق أو شخص متمسك بالأمر بصورة تضاهي تمسكه هو الآن بمشغل الأغاني؟

حقيقة لم يكن على حق بمثل تلك الفكرة، فقد أثقلت عليه وصورت بصورة مغايرة كيف تبدو نواياه ضئيلة للغاية أمام الأفكار الرافضة لها، وصورت له على نحو أقوى وأكثر إلحاحًا ما رآه في أعمق أحلامه الليلية خلال السنوات التي مضت. حيث كان يتراءى له الإلهام في شكل صور في أعماق أحلامه، تلك التي كان يراها في يقظته وفي أثناء نومه ويواصل التفكير بها وهو متيقظ، وكانت كل صورة تحيطها أخرى. كانت كل الأحلام تحكي عن شيء، حتى وإن جاء ذلك الحكي في صورة مقتطفات ضخمة. تلك المقتطفات التي لا ترد في الغالب في أضغاث الأحلام كانت هي الطاغية على أحلامه لتشمل: ملحمة تضم العالم بأثره عن الحرب والسلام، السماء والأرض، الغرب والشرق، القتل العمد وغير العمد، القمع، السخط والتسامح، القصور والحانات الرديئة،

الأدغال وقصور الرياضة، الاختفاء والعودة، والوحدة الظافرة بين الغرباء كليًّا والحب الطاهر المقدس، مع ظهور عدد لا يحصى من الأشخاص الذين تتضح ملامحهم بوضوح فيها؛ فهم مجهولون مألوفون بالنسبة له، جيران تغيروا عبر عقود من الزمن، إخوة متباعدون، نجوم في عالم السينما والسياسة، قديسون ودمى، وأسلاف يتغير حالهم في الأحلام ويعودون للحياة (مثلما كانوا في الحقيقة). ودومًا كان هناك بشكل متجدد أطفال، وكان ابن أولئك الأطفال واحد من الأبطال الرئيسة في تلك الأحلام، إلا أنه لم يكن يظهر إطلاقًا بنفسه في تلك الأحلام فلم يكن سوى مشاهد ومستمع لها. ومثلما كانت الصور طاغية على ذلك الإلهام الذي يتلقاه في أحلامه كان أيضًا للمشاعر مكانها في ذلك الإلهام، فبعضها كان لا يراوده أبدًا وهو في حالة اليقظة مثل شعور الرهبة تجاه وجه بشري عادي أو شعور النشوة أمام زرقة الجبل أو حتى شعور الإيمان (وحتى الإيمان تمثل أيضًا كشعور في أحلامه) إلا أنه لم يشعر سوى بالإيمان بالأنا. أدرك بعض المشاعر الأخرى إلا أنها كانت تبدو له مع تلك الحسية المتوهجة للنائم في أحلامه الملحمية مجردة وغير مجسمة بصور. كيف كان يشعر في أحلامه بعد ذلك بالامتنان بدلًا من الاعتراف بالفضل والشفقة والطفولية والكره والدهشة والصداقة والأسى والتخلي والخوف من الموت؟ كان يستفيق من تلك الأحلام وهو يشعر أن الإيقاع الذي يجب أن يتتبعه بالكتابة يتأرجح به بعيدًا عن نفسه. وها هو

يؤجل الكتابة مرة أخرى من أجل أمر آخر هامشي، وهل تلك أول مرة يقوم فيها بذلك؟ (كانت تلك الاحلام هي التي تدفعه للتفكير في الكتابة فلم يكن هناك إلهام سواها). كما أنه كان يعتقد أن شخصًا مثله غير مستقر لا يمكنه سوى القيام بمثل هذه الأشياء الغريبة، وفي النهاية قد لا يكون بالروايات القصيرة التي كتبها سيمنون في غرفة فندق خارج موطنه أي لمسة ملحمية. ألم يكن ذلك مرة أخرى جزءًا من الحلم أم ربما كانت واحدة من محاولاته للفرار، التي اعتاد استخدامها في تلك الأثناء؟ لم لا يجد له في النهاية مستقرًا؟ ولكن أين بالتحديد؟ ألم يلحظ أن ترحله لم يكن في الغالب سوى تخبط بلا غاية؟ في ذلك الوقت عندما كانت الكتابة عن مشغل الأغاني لا تزال مجرد فكرة مبدئية، خطرت برأسه مقولة لبيكاسو كشعار محتمل: إن المرء يرسم الصور مثلما تربي الأميرة أطفالها، مع راعية الأغنام. فالفنان لا يرسم إطلاقًا الآلهة ولن تجد رسامًا صوّر في لوحته إطلاقًا أريكة من موديل لويس الخامس عشر، وإنما يرسم في لوحاته كوخًا لرجل من منطقة ميدي في جنوب فرنسا يمسك بعبوة تبغ ويجلس على كرسي قديم. وكلما كان موضوع الرسم أقرب لتحققه في الواقع؛ قلت إمكانية نقل ما أظهره الرسام في لوحته في شكل محتوى مكتوب. بدأت الأحلام الملحمية بصورة. كان يتملكه شعور طاغٍ ومتفرد فيغمره بشدة، (مع لهفة لترجمة كل هذا إلى لغة مناسبة) ذلك الشعور الذي عرفه بالفعل منذ فترة شبابه وظهر الآن مرة

أخرى مع ترحله الدائم في فترة الانقلاب الشتوي. كان يراوده ليلة بليلة بصورة مألوفة. ومع أول صورة ظهرت عندما غفا انفتحت بوابة الحكاية وظل صداها يتردد أثناء نومه طيلة الليل. ولكن في ما عدا ذلك ما علاقة شيء مثل مشغل الأغاني -وهو عبارة عن بلاستيك وزجاج ملون ورقاقة من الكروم على الإطلاق- بكرسي أو بكوخ في حقل؟ لا شيء. أو ربما هناك علاقة تربطهما؟!

لم يسمع من قبل عن عمل لرسام ظهر به مشغل الأغاني ولو حتى على سبيل قطعة من الديكور. أو أن فناني الفن الشعبي اهتموا بذلك الجهاز على الرغم من نظرتهم الشمولية التي تثمن تسلسل الأشياء وأصولها وماضيها، حتى كل ما هو مقلد أو هامشي. أصابته تقريبًا هلوسة أمام بضع لوحات لإدوارد هوبر، تصوِّر أشخاصًا متفرقين داخل حانة ليلية في مدينة مجهولة؛ كان يرى الأشياء في تلك اللوحة، إلا أنه يراها في الوقت نفسه وكأن أحدًا محاها فكانت تبدو كبقعة فارغة مضيئة. لم يخطر حينها برأسه سوى مطرب واحد وهو فان موريسون الذي كان يوصف دومًا بأنه الصوت الخالد لمشغل الأغاني، ولكن هذا يذكرنا بحكمة شعبية تقول «ما يدوم طويلًا يغيب طويلًا».

وإضافة لكل ذلك: لماذا تصور أن ما قد يقال عن هذا الشيء سيظهر في شكل كتاب، حتى وإن كان كتابًا ضئيل الحجم للغاية؟ هل تخيل أن فكرة الكتاب أساسية من أجل الحديث عن انعكاس

النور الطبيعي لا سيّما نور الشمس وصوغه في جملة تلي الأخرى وليس أساسيًّا بالنسبة لأمر آخر مثل وصف الإضاءة الاصطناعية المعتمة في الظلام والمنبعثة من تلك الأسطوانات بداخل جهاز إلكتروني. (كان ذلك يتطابق على كل حال مع تصوره القديم الذي لم يستطع التخلص منه وهو يفكر بالكتاب). ألم يكن من الأفضل على الرغم من كل هذا صياغة الأمر في شكل مقال صغير يكتبه لجريدة، أو الأفضل لمجلة تصدر في نهاية الأسبوع فتتصدر صفحاتها المهتمة بكل ما هو قديم صور ملونة لنماذج من مشغل الأغاني منذ ظهوره وحتى الآن؟

وعند وصوله لتلك النقطة أثناء تأملاته كان مستعدًّا للتخلي ببساطة عن كل ما كان يخطط له طيلة الأشهر الماضية (كفاك كتابة عما تحب واكتب عما يستفزك وبه تحدٍّ لك)، إلا أنه قرر مواصلة ما خطط له بكل بساطة، والاستعداد للخطوة التالية، وهي فعل لا شيء سوى التسكع والتجول في القارة والاستمتاع بوقته. شعر حينها فجأة بمتعة غريبة لهذا القدر من اللاجدوى التي ستحققها نواياه؛ الحرية! وفي الوقت نفسه شعر بقدر من الطاقة لفعل لا شيء تقريبًا، حتى وإن كان سيجد هذا اللاشيء في مكان آخر سوى مدينة سوريا التي تقع خارج العالم.

وجد غرفة متاحة لقضاء ليلته الأولى في فندق كان اسمه على اسم ملك إسباني من العصور الوسطى. كان كل مكان غريب يمر

عليه تقريبًا أثناء ترحاله يبدو له من النظرة الأولى حقيرًا وتافهًا، إلا أن نظرته له تبدأ بعد ذلك تتسع بصورة غامضة مع السير هنا وهناك فيتراءى له المكان كجزء من العالم: «يا لها من مدينة كبيرة!» كان دومًا يتعجب مرارًا وتكرارًا، حتى وإن كانت قرية فكان يقول عندئذ «يا لها من قرية كبيرة!» إلا أن سوريا التي مر على أزقتها في مساء مطير لم تتسع إطلاقًا وهو يتلمس طريقه في العتمة التي اصطبغت بها ربوة الحصن القديم. لم تكن سوريا كأفينيدا المتألقة. وقد أظهر هذا المكان -الذي لا يتخطى كونه مجرد مجموعة من الحوائط الباهتة داخل منحنى من الأزقة، في تلك الليلة، حتى عندما ضل طريقه من حانة لأخرى- أن كل ما به قد خلا تقريبًا مبكرًا، ولا يوجد به ما يمنحه بعض الحياة سوى تلك النغمات المغرية المتكررة الصادرة من ماكينات القمار. فظهرت أمامه بصورة مدينة صغيرة إيرومتوسطية اعتادت الملل والسأم. حتى تلك الحلبات البيضاوية لمصارعة الثيران والمهجورة في الشتاء لا يحيطها سوى السواد. لم يكن فيها ما يمكن اكتشافه أو إنجازه أكثر من ذلك، كان ذلك حكمه المسبق عليها. إلا أن الشعور الأول الإيجابي الذي أحسه هو عدم الحاجة لأمتعة هنا. كان هناك في الصف الأول المعروض في فاترينة إحدى المكتبات كتب لـ هارولد روبينز، ولِم لا؟ وفي مكان جانبي كانت أوراق نبات الدلب المبللة تضيء وتومئ في منتصف الليل. كان بسوريا اثنان من دور السينما، ريكس وأفيندا، وكانت أكشاك التذاكر الخاصة بهما

توجد بالخارج في الشارع بجوار واجهة مدخل السينما المتسع وكان بها فجوات يمكن بالكاد رؤيتها، ولا يوجد مثل تلك الأكشاك سوى بإسبانيا ويظهر لك من داخل كل كشك وجه سيدة عجوز تشعر وأنه لنفس السيدة. حتى النبيذ لم يكن له مذاق خاص كما في المدن الصغيرة. أما بلاط أرضيات شوارع سوريا فكان ذا أشكال متداخلة وعلى أطرافه أشكال تشبه المربعات مع بعض الاستدارة في حين أن حجارة رصف الشوارع في مقاطعة برغش كانت بالمقابل تتخذ شكل الثُّلْمة[2]. كان المقابل لكلمة الصبر في اللغة الإسبانية هو كلمة Ecuanimidad ولقد استخدمها في دعائه بتوافر الوقت بالتبادل مع مقابلها باليونانية.

ظهر في الحلم الذي راوده مئات الأشخاص منهم قائد عسكري وكان في الوقت نفسه يعيد صياغة أعمال شكسبير وقد انتحر رميًا بالرصاص من حزنه على حال العالم. كما رأى أيضًا أرنبًا يجري عبر الحقل، وبطة تسبح في النهر، وطفلًا اختفى أمام أعين الجميع، وفلاحين يموتون بين لحظة وأخرى، عرف ذلك من شهادات الناس التي سمعها داخل الحلم، وكيف أن القس لم يهتم سوى بإجراءات الدفن (كان الدور الذي تلعبه الشهادات المسموعة في الأحلام غريبًا، فهي لم تكن تُقال أو حتى تُسمع ولكنها كانت تتسلل بكل بساطة وسكون في الهواء). كانت رائحة

2- وهو شكل الفتحات المفرغة الموجودة في جدران حصون الرماية.

نزيف أنف الجد أشبه برائحة شعر كلب مبتل. ظهر طفل مرة أخرى وكان اسمه جايست -والتي تعني «روح» بالعربية- أعلن أحدهم الآن وبصوت مرتفع أهمية الاستماع في الوقت الحالي.

وفي اليوم التالي، بدأ رحلته لوداع المدينة وهو يتجول عبر شوارعها. كان الجو لا يزال مطيرًا ووفقًا لما ذكرته إحدى الصحف فإن سوريا عادت مرة أخرى لتكون المقاطعة الأكثر برودة في إسبانيا. وقف فجأة أمام واجهة كنيسة سانت دومينجو -لم يكن ينتوي فعل ذلك- والتي يعكس في الحال حجمها وأحجارها الرملية فاتحة اللون والمستديرة -في الغالب- قدمها وعراقتها. يا لها من رعشة مألوفة تلك التي تسري بداخله عند رؤية المباني الرومانية وما بها من تناسب. شعر بها تسري داخله في كتفيه وخصره وباطن قدميه وأيضًا في كل ما هو غير مرئي من جسده. نعم ذلك الشعور بالرهبة الجسدية الذي أصابه وهو يسير الآن في انحناء وببطء قدر المستطاع تجاه الكنيسة التي شيدت على شكل مخزن غلال. وفي اللحظة الأولى أثارت دقة تقسيم مسطح الكنيسة، وتلك الأقواس الدائرية والأشكال المحفورة بداخلها، مقولة بورخيس داخل رأسه «أخوية الجمال»، إلا أنه شعر في ذات اللحظة بالخجل من أن يتشبع فجأة ويكتفي من ذلك الكمال، فقرر أن يؤجل موعد مغادرته للمدينة وتحديد وجهته التالية إلى الليل وأن يعود مرة أخرى قبل مغادرته لرؤية المكان عندما يسطع نور النهار على التماثيل. في البداية بدأ في البحث

فقط عن الاختلافات الموجودة في المنحوتات الجماعية التي أحب متابعاتها على الفور. كانت تلك هنا أيضًا (دون الحاجة لأن يبحث عنها طويلًا) مثل كل مرة يرى فيها منحوتات رومانسكية، كانت تبدو له وكأنها شفرات سرية تخص المكان. كانت تلك المنحوتات موجودة هنا في سوريا بكثرة في كل مكان على مرمى البصر، مثل المنحوتة التي يبدو بها غطاء مفصل الورك الخاص بالرب / الأب، والذي استند إليه آدم الذي كان قد خلق للتو للوقوف على قدميه، ذلك الغطاء الذي كان يبدو في تلك المنحوتة أملس بشكل كامل، ولكنه بدا في تماثيل أخرى مجعدًا، وأسفله كان يرقد المجوس الثلاثة في سبات. كما رأى ورقة نبات الأقنثا التي تشكلت في صورة صدفة بحرية بحجم شجرة ترتفع خلف قبر يسوع الخالي. وكان هناك نحت داخل قوس أعلى بوابة الكنيسة يصور (في شكل حبة لوز الرب/ الأب البسام، والرب / الابن الذي يبتسم وهو يجثو في ركوع أمام اللوح المحفوظ). لم يتم تصوير رموز الحيوانات الخاصة بالمبشرين في وضع القرفصاء ولا مرة واحدة، ولكن وهم جالسون على حجور الملائكة، ولم يتضح ذلك فقط من تصوير ذلك الشبل حديث الولادة أو ذلك العجل الصغير وإنما أيضًا من صورة العقاب القوي... بينما هو يسير على عجل نظر فوق كتفيه ليرى من بعيد بيتًا مزخرفًا، والذي بدا بوضوح أنه خاوٍ من البشر يحمل عبارة «في الهواء الطلق» لكارل فلانتين؛ كان المبنى عريضًا ومنخفضًا (كانت كل المباني

السكنية من حوله أعلى منه) مع منظر السماء أعلاه على الرغم من كل الفوضى المنتشرة حوله تمثل في الحال صورة مثالية، كان يختلف كليًّا عن كل المباني الصلدة من حوله، مما جعله يبدو كآلة موسيقية تنساب منها الألحان في السكون. وهنا أخذ هو أيضًا يعزف فخطرت بباله أنه في تلك الفترة الزمنية منذ ثمانمئة عام شهدت أوربا حقبة زمنية ركزت على تصوير كل شيء. فتم تصوير التاريخ البشري سواء الفردي أو الجماعي بشكل رائع. أم كان ذلك مجرد ظاهر التصوير السائد حينها (ولم يكن توجهًا في ذاته)؟ ولكن كيف وصل الأمر لمثل هذا التصوير الملكي الطفولي وذلك التصوير الذي تم الالتزام به بهذه الدرجة؟

كانت سوريا تقع بين ربوتين، اتضح ذلك الآن بوضوح في ضوء النهار. كانت إحدى الربوتين تغطيها الأشجار والأخرى قاحلة جرداء، بالأسفل هناك وادٍ يصل لنهر الدويرة الذي ينساب بجوار تلك المنازل المتفرقة التي لم يتبقَّ سواها، وعلى الناحية الأخرى هناك منطقة صخرية مترامية الأطراف. كان هناك جسر صخري يمر أعلى النهر حتى الطريق الذي يؤدي إلى سرقسطة شارع ساراجوسا. وقد تزايد أعداد الوافدين الجدد إلى سوريا بعد بناء ذلك الجسر. هبت رياح خفيفة وتشكلت الغيوم في السماء. سمع صوت كلب ثائر ينبح بالأسفل وهو يطارد أوراق أشجار الحَور المتراصة على ضفاف النهر والتي قد تساقطت عن آخرها فكانت الرياح تذروها هنا وهناك. انزلق نبات الغاب داخل المياه

القاتمة، فغمرته المياه ولم تظهر منه سوى زهراته. الغريب... غريب؟ عن هذا المكان اتخذ اتجاهًا آخر يخالف ذلك الاتجاه الذي اتبعه الشاعر ماتشادو في نزهته الشهيرة فذهب باتجاه أعلى النهر، ذلك الطريق البري الذي تتراص عليه جذور أشجار التنوب، حيث السكون. شعر بتيار هوائي يمر بجانب صدغه (تخيل ذات مرة أن إحدى الشركات المعروفة ستقوم بتقديم عطر مخصوص لتلك المناطق من الوجه على سبيل المثال، حتى تشعر البشرة في تلك المنطقة أيضًا بأقل نفحة هواء تمر عليها، كيف يمكن تسمية الأمر؛ ذلك الإحساس بالهواء الآن؟

بعد عودته من هذا المتسع من الفراغ احتسى القهوة في حانة على النهر اسمها «ريو» وخلف البار كان هناك غجري شاب. كان هناك بضعة رجال متقاعدين يجلسون متراصين يتابعون بدهشة وحماسة البرنامج التلفزيوني الذي يذاع في فترة ما قبل الظهيرة. كانت الفناجين والكؤوس تهتز بين أصابعهم جميعًا بسبب حركة السيارات المتواصلة بالخارج. وفي الزاوية كان هناك موقد حديدي أسطواني الشكل تم تجديده وكان ارتفاعه لا يتجاوز طول الركبة، كان مقسومًا بشكل طولي وفي المنتصف كانت هناك زخرفة تشبه المحار ومن فتحته بالأسفل يظهر توهج النار. كانت رائحة نشارة الخشب التي تم نثرها على الأرضية في الصباح تفوح من قرميد الأرضيات.

وبعد أن توجه إلى الخارج مر بالطريق أثناء صعوده الجبل على شجرة بلسان يصل حجم جذعها لحجم ماموث ضخم، وكانت أغصانها القصيرة المضيئة بها عبارة عن عدد لا يحصى من الثنيات الزائدة المتضافرة. لم يكن للأمر علاقة بالإيمان بالخرافات فحتى دون مثل تلك الصور والعلامات كان سيبقى في سوريا ويبدأ كتابته عن مشغل الأغاني فيها كما كان مخططًا له. وفي تلك الأثناء أراد أن يتمتع بالمزيد من الصباح والليل في تلك المدينة الصغيرة كما هو واضح. «لا لن أغادر هذا المكان حتى أنهي ما جئت من أجله!» ربما سيبقى هنا وهو يرى كيف ستسقط آخر أوراق أشجار الدلب. وها هو الآن ذاك الضوء الأسود النقي يسيطر على المكان مثل ذلك الذي ينبعث من الأرض أدناه. ذاك الضوء الذي كان يشجعه دومًا أن يتنحى جانبًا في الحال ويكتب ويكتب ولا يتوقف عن الكتابة، حتى دون أن يكون لديه موضوع يكتب عنه أو حتى أن يكتب لوجود شيء مثل مشغل الأغاني. والتوجه لذلك المتسع بالخارج، حيث يستطيع بالكاد رؤيته من هنا وهو خارج المدينة. هل سيقوم من جلسته كل يوم حتى يجلب لنفسه ذلك السكون الذي طالما ازدادت حاجة عقله له مع الكبر في السن؟ ومن ذلك السكون يفترض أن تتشكل الجمل بالطبع ومن بعدها سيتخلى عن صخب المدينة في جميع الأركان الأكثر هدوءًا، لن يترك ممرًا أو مقبرة أو حانة أو ملعبًا دون أن يدرك خصوصيته.

لم يتبين سوى الآن أن هذا اليوم يوافق يوم عطلة رسمية في إسبانيا، وذلك يعني أنه موسم السفر ولذا وجد هناك مرة أخرى في سوريا غرفة شاغرة لبداية الأسبوع القادم. كان ذلك أمرًا جيدًا بالنسبة له فبهذا يمكنه أن يُرجئ البداية مرة أخرى، وبالإضافة إلى ذلك فقد يضطر من باب التهرب المؤقت إلى السفر إلى أي مدينة أخرى حتى يتسنى له الحصول على صورة عن الوضع في سوريا أثناء رحلتي الذهاب والعودة، والتي لن يتحصل عليها وهو هنا وحده في تلك الربوة وإنما عندما يسافر في كل الاتجاهات المحيطة بها وليس فقط ذلك الاتجاه الغربي حيث برغش. كان يرى أن ذلك مفيد للخطوة التالية. إلا أنه لا يزال أمامه يومان وقرر أن يقضي الأول في الشمال والثاني في الجنوب، وسيذهب في المرتين إلى أماكن خارج إقليم قشتالة. سيبدأ بمدينة لوجرونيو الموجودة بمنطقة لاريوخا الشهيرة بمزارع العنب ومن ثم سيسافر إلى مدينة سرقسطة عاصمة أراجون. كان ذلك الاختيار قائمًا على جدول توقيتات حركة الحافلات. وفي رحلته الأولى سيبقى في واحد من المطاعم الإسبانية ذات الغرف الخلفية، حيث يشعر بالأمان فالمرء هناك يمكنه أن يختلي بنفسه ولكن يشعر من خلال تلك الحوائط المكونة من ألواح رفيعة والأبواب الجرارة التي غالبًا ما تكون مفتوحة بنفس الصحبة الموجودة بالحانة التي يوجد بها تلفاز وماكينات للعب القمار والتي يتسرب إليك صوتها العالي.

لم يكن هناك أحد معه في الحافلة المتجهة إلى لوجرونيو في فترة ما بعد الظهر سوى راهبة. كانت السماء تمطر وفي ذلك الممر الضيق الذي يقع بين البلدين كان الأمر أشبه بارتحال بين غيمتين كبيرتين معبأتين بالمطر. لم يعد بإمكانهم رؤية شيء سوى تلك الستائر الرمادية المعلقة على النافذة. ومن ثم تسللت أغنية «Satisfaction» لفريق الرولينج ستونز من مذياع الحافلة. كانت أغنية يمكنك سماعها أكثر من أي أغنية أخرى على مشغل الأغاني، وكانت من الأغاني القليلة التي ظلت تذاع لعقود متتالية على مشغلات الأغاني في جميع أنحاء العالم (دون أن يتم استبدالها بأخرى). انشغل المسافر الوحيد بالتفكير في أنها كانت نموذجًا معياريًّا، في حين أولى المسافر الآخر في الزي الأسود لراهبات الدير انتباه مماثل لذلك الصوت الجهوري لجيتار بيل ويمين الذي ملأ المكان، فأخذت تتحدث مع السائق عن الأمر لساعة وعن حادث بناء حدث بالجوار في أحد الأزقة الجانبية وأسفر عن مقتل اثنين بعد سقوط أسياخ حديدية وصبّة إسمنتية حديثة عليهما، بينما هو يتناول عشاءه في ظل ذلك الأمان الذي يمنحه له الركن الهادئ الذي يجلس به.

بعد انتهاء تلك الأغنية أذيعت على الراديو أغنية «Ne me quitte pas» لجاك بريل والتي كانت عبارة عن أغنية يتوسل فيها إلى محبوبته ألا تتركه، وتلك أغنية أخرى من بضع أغانٍ وصفت بأنها من كلاسيكيات مشغل الأغاني، على الأقل بعد ظهوره في

الدول الناطقة باللغة الفرنسية وكان الأمر يحتسب من خلال النظر إلى تلك القوائم الثابتة من الأغاني والتي لا يمكن المساس بها (فكان لما يسمى بالموسيقى الشعبية على سبيل المثال مكانتها على قوائم مشغلات الأغاني في النمسا، أما في إيطاليا فكانت للموسيقى الأوبرالية والكورال الأوبرالي وخاصة أوبرا عايدة وأوبرا نبوكو الأولوية على مشغلات الأغاني). ظل المسافر يفكر في أنه من العجيب الآن أنه لا يمكن اعتبار صوت المطرب البلجيكي الذي غنى المزمور سوى مجرد صوت غنائي بلا أي تحفظ (أقول ذلك لك فقط!) بصفة شخصية، فصوته لا يتناسب إطلاقًا مع جهاز موسيقيّ يوضع في الأماكن العامة وتوضع فيها عملات كي يمكن تشغيله. على كلٍّ الأمر يسير بشكل جيد هنا في تلك الحافلة التي تكاد تخلو من الركاب أعلى منعطف فوق ممر مرتفع يكاد يتخطى ارتفاعه 200 متر يسير في تلك المنطقة النائية بين الضباب الرمادي ورذاذ المطر.

كان قرميد أرضيات الشوارع في لوجرونيو محفورًا عليه عناقيد عنب وأوراق شجرة العنب، وتحظى تلك المدينة بمؤرخ رسمي لها، يفرد له يوميًّا صفحة للكتابة عنها في صحيفة «لاريوخا». لا أثر هنا لنهر الدويرة، وإنما ينبع نهر إبرة، والذي يقع مجراه بداخل المدينة وليس من حولها من الخارج مثلما هي الحال أيضًا في تلك المدينة الجديدة على الضفة الأخرى من النهر. اصطفت قطع مرتفعة من الجليد على جانبي مجرى النهر المتسع

وأخذت في الاهتزاز حتى بدت كرغاو صناعية، كانت الشراشف على واجهات المنازل المرتفعة على الجانبين ترفرف أسفل المطر الذي أخذ في الانهمار مع حلول الفجر. وعلى الرغم من أنه رأى طقسًا مشابهًا في سوريا، وأن لوجرونيو تبدو بشوارعها وأروقتها وخاصة مع تلك الإضاءة الخاصة بالكريسماس كمدينة أنيقة ورحبة، كما أن منطقة حقول الكرم بجنوبها تمتاز بشكل ملحوظ، بهوائها المعتدل، إلا أنه شعر فجأة عندما تخيل ذلك التحول للشتاء هناك في سوريا أعلى هضبة ميسيتا، والتي لم يكد يقضي فيها حتى ليلة واحدة ونصف يوم بشعور كجاذبية الحنين للوطن.

أما سرقسطة، التي ارتحل إليها في اليوم التالي والتي تقع في اتجاه الجنوب الشرقي بالأسفل قليلًا في وادي إبرة الفسيح، فكان قرميد الشوارع فيها على شكل خطوط مموجة متقوسة والتي تمثل في اعتقاده تيار النهر المتعرج، وقد بدت له بالفعل كمدينة ملكية وخاصة بعد كل تلك الأزقة التي ألفها ورآها في إسبانيا في البداية في رحلة بحثه عن منطقة وسط المدينة، وهو ما يتضح أيضًا مع اسم نادي كرة القدم التابع لها. قد تجد هنا الصحف الأجنبية الصادرة يوميًا، كما يمكنك متابعة أحدث الأفلام وقت صدورها والبعض منها يكون بلغته الأصلية، كما هي الحال في أي مدينة عالمية، بالإضافة إلى مشاهدة مباريات كرة القدم التي تقام هنا في عطلة نهاية الأسبوع بين فريق ريال

سرقسطة وأي نادٍ آخر من مدريد. وفي إحدى المباريات رأى -من خلال نظارته المعظمة التي كان يحملها داخل حقيبته- الواقعي إيميليو بوتراغينينو بشحمه ولحمه (بردائه الذي كان دومًا نظيفًا حتى وهو واقف في الوحل) والذي كان من الممكن أن يصدقه أي شخص وهو يجيب عن سؤال طرحه أحد المراسلين عليه حول ما إذا كانت كرة القدم فنًّا أم لا، وحينها أجاب قائلًا: « نعم! للحظات».

في مسرح المدينة كانت تعرض مسرحية لصامويل بيكيت والتي تزاحم وتكالب الناس على شراء تذاكر لدخولها. داخل متحف الفنون الجميلة بالمدينة تجد لوحات لفرانثيسكو جويا، والذي قضى فترة تعلمه للرسم في سرقسطة، تلك الفترة التي شكلت حسه وتذوقه للفن، وهو ما توفره سوريا أيضًا من خلال ذلك السكون الذي يحيط بها، ذلك بالإضافة إلى الجرأة التي لا بأس بها والتي ظهرت في لوحاته. إلا أنه هناك مكانًا آخر قد خطر بباله، حيث تسير قطعان الأغنام بجانب المباني الحديثة في مسار خاص بها وتتجه صوب المرتفعات، وعلى الرغم من ذلك الارتفاع إلا أنه يمكنك رؤية العصافير وهي تحلق بشكل عمودي في السماء؛ لقد افتقد تلك العصافير. (لقد رصد شخصًا ما ذات مرة: ما الذي يعول عليه الناس في نشرات الأخبار اليومية على التلفاز سواء كانت تلك ذات طابع محلي في طوكيو أو في جوهانسبرج؟ وكانت النتيجة هي العصافير. سواء كانت موجودة

في المقدمة في صورة جماعية لرجال الدولة أو في لقطة لحطام يتصاعد منه الدخان وفي الخلفية تسمع صراخ العصافير).

كان الهدف من وجوده في هاتين المدينتين هو البحث؛ البحث العابر عن أي مشغل للأغاني. فمن المفترض أن يجد على الأقل جهازًا واحدًا قد تبقى من العصور السابقة ولا يزال يعمل في لوجرونيو وآخر في سرقسطة. (إن وجود جهاز تم تصنيعه حديثًا لم يكن ليخطر في باله، ففي الحانات الإسبانية كان أقل مكان شاغر يخصص حصريًا لأجهزة لعب القمار المتهالكة).

كان يعتقد أن هناك حالة طقس معينة يفترض أن تتسم بها الأماكن التي يحتمل تواجد مشغل الأغاني بها. كان يحدوه أمل ضئيل في العثور عليه في منطقة وسط المدينة أو حتى في الأحياء التي تم تجديدها أيضًا، أو بالقرب من مناطق الآثار والكنائس والمتنزهات أو في الشوارع ذات الأشجار على الجانبين (فالمناطق التي بها فيلات سكنية بعيدة كل البعد عن ذلك الأمر). لم يصادف في رحلته تقريبًا حتى جهاز مشغل للموسيقى واحدًا (ميوزيكبوكس)، سواء في بحثه داخل منتجعات الاستشفاء أو حتى داخل ساحات التزلج (إلا أن الأماكن التي يمكن تصنيفها بأنه يشتبه وجوده بها فهي تلك الأماكن المجهولة والمناطق المنعزلة المجاورة، (مثل قرية ساميدان في منطقة سانت موريتس وغيرها). لم يجده إطلاقًا على متن أي يخت أو حتى

في أي مرفأ (ولكن يمكنه البحث في مرافئ الصيد، وربما في الغالب أيضًا في مواقف المعديات، مثلما كانت موجودة في مرافئ صيد ومواقف خاصة للأتوبيسات البحرية في إنجلترا وإيطاليا واسكتلندا أو حتى في اليابان). قد يتواجد مشغل الأغاني بصورة أقل في المطاعم والحانات الموجودة على اليابسة أو تلك الموجودة بداخل المدن، وإنما في الجزر وفي المناطق الحدودية.

على حسب ما يتذكره كانت الأحياء السكنية الموجودة على جانبي طريق السكة الحديدية تتسم بدفء خاص، كانت مترامية الأطراف بشكل مبالغ فيه بالنسبة للقرى، إلا أنه لم يكن بها مركز كالمدينة، وكانت بعيدة عن أشكال حركة المواصلات كافة، فهي تعد مناطق بلا ملامح مميزة يخلو محيطها من المسطحات المائية (وإذا ما وجد نهرًا فغالبًا ما يكون خارجها وعلى مسافة بعيدة منها، غير أنه يجف في أغلب أوقات السنة) يقطن تلك الأحياء سكان كثر من خارج إسبانيا سواء كانوا عمالًا أجانب أو جنودًا (في القواعد العسكرية، حتى في مثل تلك الأحياء لن تجد مشغل الأغاني سواء في وسطها -حتى وإن كانت تلك المنطقة لا يميزها سوى وجود بركة تتجمع فيها مياه الأمطار- أو على أطرافها (فعلى أطراف تلك الأحياء وحتى في المناطق الأبعد منها، تلك التي تقع بالقرب من الطرق السريعة يمكن أن تجد على أقصى تقدير صالات ديسكو). ولكن قد تجده في الأماكن التي تقع بين وسط وأطراف تلك الأحياء، على الأرجح في التكنات

العسكرية ومحطة القطار وفي الحانة الملحقة بمحطة الوقود أو في بعض الأماكن التي عادة ما تتواجد وحيدة بالقرب من إحدى القنوات المائية (وبالطبع في منطقة سيئة السمعة) «خلف أرصفة البضائع». وهذا هو الوجه الخفي لتلك التكتلات السكانية التي بلا هوية).

لقد صادف ذات مرة أحد تلك الأماكن المحتملة لوجود مشغل الأغاني بها، بغض النظر عن أنه مكان مولده، في أحد السهول العميقة في منطقة فريولي على الحدود مع بلدية كاسارسا الإيطالية والتي أضيف لها اسم شهرة آخر «della Delizia» والذي يعني اللذيذة بسبب أنواع العنب التي يتم حصادها في محيط تلك المنطقة. لقد جاء إلى تلك المنطقة بعد أن أمضى إحدى الأمسيات الصيفية في مدينة أوديني عاصمة تلك المقاطعة. كانت أوديني مدينة ثرية لطيفة تقع خلف نهر التاليامينتو، إلا أنه تم تطهيرها بالكامل من مشغلات الأغاني. لم يكن هناك غرض محدد من تلك الزيارة سوى ليكتب عن القصائد الست التي كتبها الشاعر الإيطالي بازوليني، والذي قضى جزءًا من طفولته في هذه المدينة الصغيرة، وهو الذي رأى في ما بعد بالتوافق مع اتحاد أجهزة لعب القمار أن مشغلات الأغاني في روما ما هي إلا وسيلة مختلفة تواصل بها الولايات المتحدة الأمريكية الحرب من خلالها: (في فراغ كاسارسا اليائس). نظرًا لأن وسائل المواصلات كافة كانت ستتوقف قريبًا في الشوارع المؤدية لطريق الخروج فقد قام بأخذ

جولة على الأقدام على أطراف المدينة من أجل الوصول للطريق، إلا أنه استدار ودخل دون ترتيب إلى إحدى الحانات والتي لم يكن عددها بالقليل هنا. كان هناك جهاز مشغل أغانٍ بداخل كل حانة تقريبًا تراه من الخارج وهو يلمع ويضيء بداخل الحانة. (كان بالحانات الأكثر تقدمًا مشغل فيديو، يتصل به من الأعلى شاشة، تلك التي ينبعث منها أيضًا الصوت). كانت كل تلك المشغلات متعددة الأشكال لا تزال تعمل، سواء كانت قديمة أو حديثة، لم تكن تلك الحانات التي تعج بالمرتادين تشغل فقط الموسيقى في الخلفية كما هو المعتاد في الغالب، وإنما موسيقى صاخبة للغاية. كان ذلك في مساء يوم السبت. وفي مثل هذا التوقيت كان من الملاحظ أنه كلما اقتربت الحانة من مكان محطة القطارات؛ كلما كثرت من ناحية لحظات الوداع وتزايد من ناحية أخرى أعداد الجنود الذين ينتظرون هنا لساعات قبل تأديتهم للخدمة الإلزامية الليلية، وغالبيتهم على ما يبدوا قدموا بالقطار من إجازة قصيرة. لا يتواجد معظمهم في جماعات بل يجلسون فرادى وبخاصة مع تأخر الوقت. أعادوا هنا تشكيل أحد مشغلات الأغاني من إصدارات شركة ورليتزر الكلاسيكية الملونة بألوان قوس قزح بتلك الفقاعات الهوائية الصغيرة التي تتهادى بداخل قبته. كانت الإضاءة المنبعثة من الجهاز كثيفة لدرجة أنها كانت تومض هنا وهناك وتتخلل الأجساد من حولها، كما انعكست الأضواء الزرقاء والحمراء والخضراء على وجوه الجالسين ورقابهم بالتبادل عند

انحنائهم على مدور الأسطوانات. كان الشارع المواجه لمحطة القطار يظهر من خلفهم كمنحنى متسع يختفي على الفور في الظلام.

هدأت الحركة حتى في حانة المحطة نفسها، إلا أنه كان لا يزال هناك بضعة صبية يرتدون زيًّا رماديًّا وآخر بني اللون، ظلوا واقفين لبعض الوقت ويحملون حقائبهم على أكتافهم بالقرب من مشغل الأغاني الموجود هنا. يطابق هذا الجهاز موديل النيون في مشغلات الأغاني، وهو موديل حديث مجلد بصاج خفيف ولا يصدر أي جلبة مع التشغيل.. كان كل منهم يقف بمفرده في تلك الغرفة الخاوية تقريبًا، بعد أن تمت إزاحة الطاولات كافة بجانب الحائط وتناثرت المقاعد هنا وهناك. كانوا يقفون أمام ذلك الشيء الصداح الذي أخذ صوته يدوي بقوة أكبر أعلى أرضية البار المبتلة. دخل أحد الجنود ووقف جانبًا أمام فوطة الممسحة. ظلت عيناه مفتوحتين عن آخرهما حتى دون أن يرمش معلقتين تنظران بلا كلل أو ملل بأحد الاتجاهات، أما الآخر فظل بالخارج واقفًا عند عتبة المدخل وهو ينظر خلفه. أمسى القمر في ذاك اليوم بدرًا. أخذ الباب الزجاجي يرتج ويقعقع ويخفق طويلًا وباستمرار على أثر مرور قطار للبضائع قاتم اللون حجب رؤية حقول الذرة بالأسفل. كانت عاملة البار شابة صغيرة السن تقف بالداخل بوجهها النبيل المتناسق وذلك الفلج بين أسنانها.

وها هو حدسه يصدق في المدن الإسبانية في كل مرة. فحتى في الحانات الموجودة بالأحياء الفقيرة، وخلف تلك الأماكن الخربة، وفي نهاية الطرق المسدودة ومع كل بصيص من إضاءة ضعيفة تأتي من بعيد تساعده على المضي هنا وهناك، لم يجد مطلقًا ولو مرة أثرًا قد انتهى منذ فترة لبغيته المنشودة، ربما لا شيء سوى فراغ فاتح على حائط قاتم اللون، كان عليه ذات يوم مشغل أغانٍ. تسللت موسيقى عبر الأسوار إلى أسماعه. كانت تلك الموسيقى تخدعه في بعض الأحيان وهو بالخارج، فلا يعرف هل هي صادرة من جهاز راديو أم جهاز كاسيت أم من مشغل أسطوانات؟ قد تبدو جميع الحانات الموجودة في الشوارع بإسبانيا، والواضح أنه يوجد منهم الكثير في كل مدينة بشكل قد لا تراه في أي مكان آخر بالعالم سوى هنا، إما حديثة للغاية على أن تجد بها مثل هذا الشيء الذي صار بدائيًا (وبذلك فمثل تلك الحانات تفتقر جميعها إلى وجود غرف خلفية)، أو أنها قديمة للغاية، وبخاصة لكبار السن، الذين يجلسون هنا ويلعبون الورق بكل جدية. من الطبيعي أن يجتمع مشغل الأغاني ولعب القمار في مكان واحد، ولكن ليس عندما تؤخذ الأمور بتلك الجدية! أو أن تكون تلك الحانات موجودة ولكن وحدها بالمكان. في تلك اللحظة وضع رأسه بين كفيه تسندانه، ومن ثم فكر كيف تم حظر آلات لعب القمار في ذروة انتشارها هنا على يد الديكتاتور، ولم تعد تجول بخاطر أي شخص بعد ذلك، إلا أنه عرف الكثير

بالطبع عن الجوانب الخاصة وأوجه التنوع في كل المدن التي تبدو ظاهريًّا متشابهة، وذلك أثناء رحلة البحث التي لا طائل منها، والتي أشعرته بقدر من السرور على الرغم من إحساسه المؤكد بعدم جدواها.

عاد من سرقسطة إلى سوريا، التي بالكاد استطاع تمييز أي شيء عن المقاطعة الشرقية التي تضمها، وهو عائد ليلًا على خط سكة حديد بمنأى عن الطرق الداخلية. لم يعد يحتاج الآن سوى لغرفة مناسبة للكتابة، فقد أراد أخيرًا البدء على الفور في اليوم التالي في الكتابة عن موضوع بحثه. هل يبحث عن مكان في الأعلى فوق إحدى الربوتين، أم في الوسط في المدينة بالأسفل؟ ربما لو اختار غرفة بالأعلى سيكون بذلك خارج المدينة وربما يعاوده مرة أخرى شعوره بالعزلة الزائدة وأنه محاصر بين البيوت والشوارع، وإن استقر على غرفة تطل على فناء داخلي ستكون كئيبة بالنسبة له، ولو كانت الغرفة تطل على ميدان ستلهيه عن مهمته كثيرًا، ولو كانت الغرفة في اتجاه الشمال فلن يدخلها نور الشمس بشكل كافٍ للكتابة، وإن كانت في اتجاه الجنوب فستكون إضاءة الشمس زائدة وتصعب عليه بذلك الكتابة والنظر إلى الورق، ولو كانت أعلى الهضبة القاحلة فستعصف الرياح وتتسلل للغرفة، ولو كانت الغرفة أعلى الهضبة الخصبة فسيظل الكلاب ومرتادو المكان يزعجونه طيلة اليوم بصياحهم، وإن أقام في فندق صغير، وهو يعرف كل الفنادق الصغيرة هنا، فسيكون

قريبًا للغاية من الجيران، ولو أقام في فندق كبير وقد استكشفهم كلهم أيضًا فربما يجلس ويشعر في الشتاء بوحدة بالغة وهذا ليس في صالح إحساس الكاتب بداخله. مكث في بادئ الأمر لليلة واحدة في فندق أعلى الهضبة الجدباء. كان الشارع في الأعلى ينتهي أمام منزل حجري في مكان موحل، وكان السير على الأقدام باتجاه المدينة، وهو ما قام بتجربته الآن يقودك عبر بادية مغطاة بالطحالب الخضراء والنباتات الشوكية إلى المرور بعد ذلك بالقرب من واجهة كنيسة سانت دومينجو، والتي اكتفى فقط بالنظر إليها، ومن ثم واصل طريقه حتى وصل إلى الميادين الصغيرة التي كانت مساحتها بالكامل مغطاة بأشجار الدلب البرية، التي لا تزال محتفظة ببعض أوراقها، والتي أخذت في الاهتزاز والتمايل. والغريب أن أوراق تلك الشجرة كانت كاملة العدد في أطراف الأغصان التي توجد بأعلى الشجرة لتشكل ومضات واهتزازات كالنجوم في السماء المعتمة. ورغم أن الغرفة بالعليَّة كانت لا تبدو ضيقة للغاية أو رحبة بزيادة، وعلى الرغم من وجود متسع من المكان بها، إلا أنه لم يكن يجد بها عادة مكانًا له. لم تكن المدينة بالقريبة ولا بالبعيدة ولم تكن تقع بالأسفل في عمق الوادي، إلا أنه لم يكن يراها من نوافذ الغرفة التي لم تكن ألواحها الزجاجية كبيرة، ولا صغيرة للغاية. واصل محاولاته لإعادة ترتيب محتويات الغرفة، فأزاح الطاولة بعيدًا عن المرآة. كانت الطاولة ضئيلة إلا أن بها من المساحة ما يكفي لورقة وأقلام

رصاص وممحاة. شعر أنه على أهبة الاستعداد هنا، وصار المكان الآن هو مستقرّه للفترة القادمة. حل بعدئذ صباح اليوم التالي مع تلك الجلسة التجريبية لاقتناص اللحظة المناسبة في ضوء حالة الطوارئ التي سيعلنها وفي درجة الحرارة التي ستسود أيضًا عند البدء في الكتابة. أصبحت الغرفة بالنسبة له الآن صاخبة (إلا أنه كان عليه حينها أن يدرك أن ذلك الصخب في تلك الأماكن التي يمكن وصفها بالهادئة هو «مأوى الصمت» والذي يأتي فجأة). ولكن إذا ما دوى صوت الراديو والضحكات والطنين وصوت زحزحة الكراسي وصفع الأبواب والصرير وصدر الضجيج من كل الأماكن القريبة، ومن داخل المنزل نفسه، من الممرات والغرف المجاورة وسَقف الغرفة، يكون كل ذلك في مجمله مدمرًا، فيفقد الكاتب الإلهام، ومن دونه فلا مجال لاستخدام اللغة والكتابة، وهذا أكثر خطورة من شارع صاخب للغاية بالخارج. الغريب في الأمر أن الغرفة المجاورة له لم تكن فقط باردة للغاية بالنسبة لجلسته التي تستمر لساعات، (ألم يكن إذًا يعلم أن الفنادق الفخمة فقط هي التي يتوفر بها إمكانية تدفئة الغرف طيلة اليوم، وأنه بالإضافة إلى ذلك عند جلوسه واندماجه بالكتابة سيجد نفسه يتنفس بانتظام بشكل لاإرادي مما سيجعله لا يشعر بالبرد؟) وإنما أصبحت فجأة ساكنة للغاية أيضًا. وكأن البقاء في بداخل الغرف المغلقة أصبح يعني له السجن، أما الحرية فهي في البقاء بالخارج بين جنبات الطبيعة. ولكن كيف سيسمح لهذا النوع

من السكون بالدخول من النافذة ونحن الآن في شهر ديسمبر؟ أما الغرفة الثالثة فكانت تحوي سريرين، وذلك أكثر بكثير مما يحتاج. ولم يكن بالغرفة الرابعة سوى باب فاصل واحد، وكان هذا قليلًا للغاية بالنسبة له... ونتيجة لذلك تعلم الكلمة الإسبانية التي تعني «للغاية» وهي كلمة طويلة جدًّا demasiado. لم يكن واحدًا من الشخصيات أو الأنماط التي ذكرها ثاوفرسطس في كتابه، والتي تتسم دومًا بعدم رضاها عن أي شيء حولها، وينشغل صاحب تلك الشخصية إذا ما قبلته حبيبته، بالتساؤل ما إذا كانت تحبه بالفعل من أعماق قلبها أم لا؟ والذي يصب لعناته على زيوس ليس لأنه سمح للسماء بأن تمطر وإنما لأنه جعلها تمطر متأخرًا، وعندما يجد كيس نقود في الطريق فيقول «وجدت نقودًا، إلا أنني لم أجد مطلقًا كنزًا!» تلك الشخصية التي عندما تأتي برأسها أغنية أطفال فتكون عن شخص لم يكن أبدًا على صواب فيقوم بتعديلها بعض الشيء لنفسه: (كان يا ما كان/ كان هناك رجل طيلة حياته لم يجد الراحة في أي مكان/ كان بيته باردًا للغاية/ لذا ذهب إلى الغابة/ فكانت بالنسبة له شديدة الابتلال/ فرقد على العشب/ الذي كان شديد الخضار/ فسافر إلى برلين/ فوجدها كبيرة جدًّا/ فاشترى لنفسه قصرًا/ فكان القصر ضئيلًا جدًّا/ فرجع مرة أخرى لمنزله/ الوطن....). ألم يكن ذلك هو الاستنتاج: إنه لن ينجح الأمر معه في أي مكان؟ بلى لقد كان ينجح دومًا في مكان ما؛ مثل أين؟ في أماكن وجدها

للكتابة أو حتى حيث كان هناك مشغل للأغاني (ولكن ليس فقط في المنازل!) إذًا لم يكن يشعر أنه في المكان الصحيح والمناسب له سوى هناك، ولكن أين على أي حال؟ كان الأمر واضحًا منذ البداية، أنه لم يكن هناك على المدى الطويل مثل ذلك المكان.

أخذ أخيرًا الغرفة التي رضخت لشروطه وقد كانت جيدة، وسيتقبل أيضًا التحديات الموجودة دائمًا. «مَن سينتصر في النهاية؟ الضوضاء أم نحن؟» قام ببري مجموعة الأقلام الرصاص خارج النافذة. لقد اشترى تلك الأقلام على مدار سنوات ارتحاله في كل الدول المختلفة، إلا أن غالبيتها تحمل أسماء تجارية ألمانية: كم أصبح هذا القلم الرصاص هنا قصيرًا؟ لقد اشتراه في يناير الماضي من مدينة أدنبرة الاسكتلندية، لقد ظل معي لفترة طويلة بالفعل. عندئذ وقعت علبة الأقلام جراء الرياح فاختلطت الأقلام مع بقايا رماد دخان الحطب المحترق وحينها كان هناك طاهٍ مبتدئ يقف بالأسفل أمام المنزل بجانب باب المطبخ الذي خرج منه للتو إلى البادية التي تنتشر على أرضها الطحالب والنباتات الشوكية والحطام. كانت بيده سكين بطول ذراع يستخدمها في تنظيف كومة من الأسماك. أخذت القشور تتطاير وتومض أثناء ذلك وتتلألأ عاليًا في الهواء. «أهذا فأل حسن، أم لا؟» إلا أنه بعد كل ما حدث اليوم أصبح الوقت متأخرًا لكتابة البداية. شعر على الفور بالارتياح كما اعتاد في كل مرة يؤجل فيها الكتابة، إلا أنه استغل ذلك التأجيل في القيام بنزهة، حتى يتمكن من

تجربة بعض الطرق المحتملة على حد وصفه، وللتعرف على نوعية التربة في تلك المنطقة، هل هي صلبة للغاية أم لينة للغاية وللوقوف على حركة الرياح بها، فهي ليست معرضة بشكل قوي للغاية لهبوب الرياح الغربية ولكنها أيضًا ليست منطقة ساكنة لا تباغتها مطلقًا هبات الرياح.

وفي هذه الأثناء أحس بشيء ما. ومضت برأسه فكرة في ذات اللحظة، وهي أن يكتب عن مشغل الأغاني ولكن في صورة حوار مسرحي. هذا الجهاز، بكل ما قد يحمله من معانٍ بالنسبة لشخص، كان بالنسبة للغالبية شيئًا على الهامش. لذا سيكون هناك شخصيتان، الأولى هي شخصية «المتسائل»، الذي لا يعرف عن الجهاز شيئًا، وهو في الوقت نفسه ممثل عن الجمهور، والشخصية الأخرى ستكون شخصية «الخبير» في ذلك المجال. وعلى عكس الحوارات المسرحية الأفلاطونية، حيث تعرف شخصية سقراط المتسائل سرًّا عن موضوع النقاش -حتى وإن كان بصورة مبدئية وبناء على أحكام مسبقة- أكثر مما يعرف معلن الإجابة، فربما لن تكتشف في الغالب شخصية الخبير نفسها مكانة ذلك الجهاز الداعم في حياته إلا من خلال تلك التساؤلات التي تطرحها الشخصية الأخرى.

تفتق ذهنه مع مرور الوقت عن فكرة أن يعرض الأمر في شكل

حوار مسرحي وبدأ بعدها موضوع مشغل الأغاني يحوم برأسه ككيان غير مترابط يظهر في أشكال مختلفة من الكتابة. هكذا كان يبدو له الأمر. لكن بم يجب عليه تسميتها؟ هل يقول طرقًا غير متسقة؟ أم غير منتظمة؟ تلك التي عايش بها مشغل الأغاني وتذكره فيها، بعد ذلك يجب أن يتم تبديل الصور اللحظية بأخرى يتم استحضارها من الماضي يقطعها السرد فجأة. يتبعها تقديم تقرير كامل في شكل كلمات رئيسة عن أنواع مشغلات الموسيقى كل على حدة في مكان محدد. وبعدها تأتي مجموعة من الملاحظات يليها مباشرة أحد الاقتباسات، والذي سيظهر دون أي ارتباط تناغمي مع ما سبقه، وأيضًا دون الانتقال لمشهد آخر. وربما يجب أيضًا إفساح المجال فقط لذلك السجل الشرفي من ألقاب وأسماء مغني ذلك الجهاز المميز. وفي اثناء ذلك رأى أن لعبة السؤال والجواب بوصفها العنصر الأساسي، الذي أعطى للموضوع برمته نوعًا من التماسك، يجب أن تظهر مجزأة بين كل ذلك فتتداخل معها ومن ثم تنسحب وهكذا بالتبادل مع أجزاء من مشاهد فيلمية يدور محور كل واحد فيها عن جهاز مشغل أغانٍ مختلف وابتداء من هنا سيتم عرض حدث متنوع أو لوحة زيتية في دوائر متسعة من حولها.

كان على استعداد لعرض ذلك حتى وإن ذهب لبلد آخر أو حتى لم يتجاوز بعرضه شجرة الشمشاد في نهاية رصيف محطة السكة الحديد. كان يأمل أن يتمكن من الانتهاء من صوغ فكرته

عن مشغل الأغاني في شكل مقطوعة موسيقية يصاحبها نص قابل للغناء يتناول هذا الجهاز. لقد بدا له الأمر أن مثل هذا التوجه في الكتابة لا يجب أن يكتب فقط وفقًا للمحتوى الخاص به، وإنما أيضًا وفقًا للوقت. أكان لتلك الأشكال الملحمية التي عرضت في كتب الفترة الحالية عن الحقب الزمنية السابقة بوحدتها وإيماءاتها عن العزيمة والتمكين (وعن المصائر الغريبة) ومطالبتها بالشمولية عن دراية مثلما عن جهل أيضًا أي تأثير عليه في تلك الأثناء سوى أنها كانت مجرد ضجة؟ كان يرى الآن، وهو الآن صاحب المعايشة الأكثر اكتمالًا وحميمية مع الأشياء، تلك التي تخلق حالة من التوحد معها، إن الكتب يجب أن تحوي تأملات ضئيلة وكبيرة ومتعددة الجوانب، فلا تتناول أشكال الانغلاق المعتادة وإنما طرق المرور، أن تحافظ على المسافة، وتدور في فلكها وتوجزها وتلتف من حولها، وأن توفر لموضوعك الحماية من الأطراف كافة.

والآن بينما يسير بلا هدف داخل منطقة الغابات أثناء جولته لتجربة الطرق، شعر بداخله فجأة بإيقاع آخر. لم يكن متبدلًا أو متقلبًا وإنما متفردًا ومنتظمًا، وفضلًا عن ذلك كله فهو إيقاع بدلًا من أن يطوقه ويتلاعب به كان إيقاعًا واضحًا وجادًّا للغاية ويأخذه بعيدًا. إنه إيقاع السرد. لم يرَ في كل ما قابله في طريقه على التوالي سوى مكونات السرد، فكان كل ما تلتقطه حواسه يسرد في ذات اللحظة بداخله، وكل اللحظات الحالية تحدث في

صيغة الماضي، ما يشعر به الآن لا يشبه الأحلام التي كان يراها، كانت مجرد جمل رئيسة مباشرة لا تحتاج لتأويل، قصيرة جدًّا وبسيطة تشبه في مجملها اللحظة: «كانت النباتات الشوكية تهتز بداخل فتحات السور الشائك. انحنى رجل عجوز يحمل حقيبة بلاستيكية ليجمع الفطر البري. كان هناك كلب يقفز على ثلاث قوائم أمامي. ذكرني شكله بالغزلان، كان أصفر الشعر وذا وجه أبيض اللون. تصاعد دخان أزرق داكن اللون للأعلى من كوخ حجري. بدأ صوت اهتزاز نبات الخردل في الشجرة الوحيدة الموجودة هنا أشبه بصوت رج علبة ثقاب. أخذت الأسماك تتقافز خارج نهر الدويرة وهبات الرياح تثير رذاذ المياه عند منبع النهر للأعلى، في حين انحدرت المياه لأسفل الصخور على الضفة الأخرى. كان القطار القادم من سرقسطة مضاء بالفعل وجلس المسافرون فيه متفرقين...». وبعد ذلك انتقلت هذه الحكاية الصامتة للحاضر أيضًا إلى فكرة الكتابة القادمة والمتنوعة التي يفكر بها. تبدل رأيه حتى قبل أن يخط الجملة الأولى وبات يميل إلى أن تكون حكاية حتمية وقوية حتى إن الأشكال الأخرى كافة تبخرت أمامها في الحال. لم يبد الأمر فظيعًا بالنسبة له وإنما بدا رائعًا وفاق كل التدبيرات. فالفانتازيا التي لا يزال يؤمن بأنها تدخل أعماق قلبه دون أي تدخلات تقريبًا، سواء في حالة السكون أو في حالة الضجيج الصاخب، هي التي تمسك بزمام إيقاع هذا السرد، سكون الطبيعة مهما كان بعيدًا بالخارج، لم يكن أبدًا ضد

هذه الفانتازيا. والجميل فيها الآن هو أن المكان والموقع حيث سيكتب أحداث حكايته قد ظهرا في صور الفانتازيا التي يراها. وبالرغم من أن رؤية الصور كانت تحثه من قبل على الكتابة، إلا أنه قام في بعض الأحيان في السابق على سبيل المثال بتغيير شجرة بتولا من كولونيا وجعلها شجرة سرو في إنديانابوليس، أو نقل حظيرة مواشٍ من سالزبورج وجعلها في يوغسلافيا، أو جعل من مكان الأحداث بأكمله شيئًا هامشيًا في الخلفية، لكن هذه المرة يجب أن تظهر سوريا كسوريا (وربما سينطبق ذلك أيضًا على برغش وأيضًا فيتوريا جاستيز، حيث بادره هناك أحد السكان المحليين بالتحية)، كما أن سوريا أيضًا مثلها مثل مشغل الأغاني هي محور الأحداث في الحكاية. ظلت تلك الملاحظات تتواصل دون توقف داخل رأسه حتى ساعة متأخرة من الليل، بلا ريب قد عذبه ذلك الأمر منذ فترة طويلة. حرفيًا تزاحمت كل لحظة تافهة داخل رأسه ورغبت في أن تكون جزءًا من الحكاية (ذلك المار ذو خلة الأسنان في فمه، اسم بنيتا سوريا فيردي على شاهد قبر، قصيدة نبتة الدردار المكتوبة باستخدام الحجارة والإسمنت تكريمًا لماتشادو، الحروف غير الموجودة في كلمة فندق على واجهة الفندق). لم يعد الآن الأمر يتعلق بقوة الصور الملحة التي تجلب له الدفء، وإنما كان واضحًا أنه إكراه بارد يصعد من القلب إلى العقل. كان أشبه بركض مستمر بلا مغزى في وجه بوابة مغلقة منذ زمن وتساءل ما إذا كانت الحكاية التي

بدت له في البداية إلهية لم تكن خداعًا، وإنما كانت تعبيرًا عن مخاوفه من كل ما هو متفرق وغير مترابط؟ هل هذ هروب؟ أم ولادة من الجبن؟ هل كان سير رجل بخلة أسنان بين شفتيه في الشتاء أعلى هضبة ميسيتا في قشتالة وإيماؤه بالتحية لا شيء في الحقيقة؟ وكما هي الحال دومًا، لم يرغب مسبقًا في معرفة الجملة الأولى لبداية اليوم التالي. بعد كل الجمل الأولى الثابتة التي كتبها بالسابق، كان يتوقف فورًا مع بداية الجملة الثانية، ولكن على الناحية الأخرى فليذهب كل ما يسمى بالإلهام إلى الجحيم! وإلى آخره...

في صباح اليوم التالي كانت الطاولة بجوار شباك غرفة الفندق. أخذت الأكياس البلاستيكية الفارغة تتطاير أعلى الحطام وتتشابك هنا وهناك بين النباتات الشوكية، وفي الأفق ترى جبلًا صخريًا على شكل منحدر تزلج وسحابة تشبه الفطر أعلى ممر القفز. إغلاق العين. حشر سدادة من الورق داخل تلك الشقوق في النافذة، والتي تعصف من خلالها الرياح إلى داخل الغرفة بقوة شديدة. إغلاق العين مجددًا مرة أخرى. سحب درج المكتب للخارج والذي أخذ مقبضه يصدر جلجلة مع بداية الاستعداد للكتابة. إغلاق العين للمرة الثالثة. دوى عواء كلب. فتح النافذة: كلب أسود صغير يقف في تلك اللحظة بالأسفل مربوط في قاعدة المنزل، كان الكلب مبتلًا بماء المطر. بدا مثل أي كلب مبتل. مع صيحات شكواه التي كانت تنكتم بين الحين والآخر كان من

الممكن رؤية بخار أنفاسه الدافئة المنبعثة منه في تلك البادية.
إغلاق العين للمرة الرابعة.

في رحلته من لوجرونيو إلى سرقسطة رأى بالخارج المكعبات الصخرية التي تستخدم في بناء أكواخ صانعي الخمر داخل حقول العنب الخاوية في الشتاء بوادي إبرة. كان هناك مثل تلك الأكواخ في الممرات الموجودة داخل حقول الذرة حيث نشأ، لكنها كانت من الخشب لا يتخطى حجمها حجم كوخ خشبي. كانت تلك الأكواخ تبدو أيضًا من الداخل مثل تلك الموجودة هنا يتخللها الضوء الذي يتسلل عبر الشقوق وفجوات الأغصان والعشب على الأرضية ونبات القراص في الأركان والذي يظهر بكثافة بين أدوات الحصاد المستندة إلى تلك الأركان. إلا أنه كان يشعر في تلك الأكواخ في بضعة الحقول التي استأجرها جده بأنها منطقته الخاصة به. كانت عادة ما تنمو شجيرة بلسان بالجوار والتي يمنح تاجها ظلًّا بداخل المساحة الخالية في ذلك الكوخ المكشوف. وتتسلل فروعها الملتوية على الجانب إلى الداخل. وكان لا يزال هناك مكان لمنضدة صغيرة ومقعد، والذي يمكن أيضًا وضعه بالخارج بالقرب من الشجيرة. وعلى المنضدة هناك إبريق فخاري وخبز القمح الكامل، الذي تمت تغطيته بقطعة من القماش حتى يظل طازجًا وحفاظًا عليه من الحشرات. كان يشعر في محيط تلك الأكواخ بأريحية أكثر من وجوده بداخل المنازل التقليدية المشيدة. (والتي لم يكن المطر يغمره فيها وهو في

مكانه مثلما يحدث هنا إلا عندما يذهب ليلقي نظرة داخل مخزن بلا نوافذ. أو وهو يقف عند الخط الفاصل بين الخارج والداخل حيث يشعر بالأمان بالداخل في حين أن الأمطار وانهمار الثلج قد يجرفه بالخارج). وحينها رأى أن أكواخ الحقول كانت مكانًا للراحة أكثر من كونها ملاذًا. كان يكفيه في ما بعد أنه وجد في منطقته أيضًا ملاذًا رمادي اللون تهب عليه الرياح وتعصف به التغييرات الجوية يقع بعيدًا في أحد الحقول لكنه يشعره بالأمان عندما يمر به. شعر حرفيًا أن قلبه يقفز بين ضلوعه ورأى في ذلك الكوخ للحظة منزله القديم حيث ذباب الصيف ودبابير الخريف وبرودة السلاسل الصدئة في الشتاء.

لم يعد هناك في الحقول في موطنه أكواخ في منذ فترة طويلة، وإنما مجرد مخازن كبيرة تستخدم فقط في تخزين القش. ولكن في ذاك الوقت، والذي كان منذ مدة طويلة للغاية، انتقل شغفه بالمنزل والمكان إلى مشغل الأغاني، فلم يذهب وهو مراهق مع والديه إلى فندق ولا حتى لاحتساء الليمونادة، وإنما ذهب لزيارة مصنع ورليتزر من أجل سماع الأسطوانات («ورليتزر هو الجوكبوكس» هكذا كان حينها الشعار الدعائي). إن ما قام بحكيه عن شعوره بالوصول للوطن وإحساس الأمان بين أكواخ الحقول، والذي لم يكن في كل مرة سوى شعور مؤقت، ينطبق حرفيًا أيضًا على مشاعره تجاه مشغلات الموسيقى. فلم يكن يعنيه الشكل الخارجي لكل من تلك الأجهزة أو حتى اختيار الجهاز

الأكثر مبيعًا، وإنما كان الصوت المميز الذي ينبعث منه هو الأهم بالنسبة له؛ ذلك الصوت الذي لم يكن يصدر من الأعلى مثلما هي الحال مع جهاز الراديو الموضوع في ركن الصلاة بالمنزل، وإنما من الأسفل وربما أيضًا بنفس قوة الصوت وبدلًا من أن يخرج الصوت من سماعات كما في المذياع كان ينبعث من الداخل ليهز أرجاء المكان. بدا الأمر وكأنه ليس مجرد جهاز وإنما آلة موسيقية إضافية تضفي على الموسيقى نغمتها الأساسية، حتى وإن كان أدرك في ما بعد أنها كانت مجرد نغمة عادية، تشبه في صوتها صلصلة قطار صدرت منه وهو أعلى الجسر الحديدي تزامن معها دوى الرعد فجأة... بعد ذلك بكثير وقف ذات مرة طفل بالقرب من مشغل أغانٍ (والذي كانت تصدر منه أغنية« Like a prayer» لمادونا والتي اختارها بنفسه). كان لا يزال صغيرًا للغاية حتى إن جسده كان ينتفض من قوة اهتزازات مكبر الصوت بالجهاز. أخذ الطفل ينصت بإمعان وبجدية وتعمق، بينما والداه يقفان عند باب المطعم تأهبًا للمغادرة. داوما بين الحين والآخر على النداء عليه وكأنهما بذلك يعتذران للنزلاء الآخرين عما ما يفعله صغيرهما مع الحفاظ على الابتسامة حتى انتهاء الأغنية، ومن ثم يعود الطفل، تغطي الجدية والتدبر ملامح وجهه ليسير بجانب والديه ويتوجهوا للشارع بالخارج. (ولكن أليس بالإمكان أن يكون السبب في فشل ذلك الإصدار من مشغل الأغاني على هيئة مسلة هو انبعاث الموسيقى باتجاه الأعلى من خلال ذلك الغطاء

بأعلى الجهاز أكثر منه بسبب الشكل غير المعتاد؟).

بدا الأمر مختلفًا عن أكواخ الحقل، فلم يكفِه فقط الوجود المجرد لمشغل الأسطوانات، فيجب أن يكون جاهزًا للاستخدام، يصدر أزيزه في سكون، وذلك أفضل من أن تقوم أيدٍ غريبة بتشغيله في الحال، كما ينبغي أن يضيء بقوة قدر المستطاع وكأن الضوء يصدر من أعماقه بالداخل. فلا يوجد ما هو أكثر كآبة من صندوق معدني معتم وبارد ومستهلك. قد يتم إخفاؤه عن العيون والنظرات على استحياء بغطاء من الكروشيه، إلا أن هذا لا يتوافق كليًّا مع الحقائق، حيث خطر بباله الآن مشغل أغانٍ به عطب في قلعة نيكو الصناعية العملاقة باليابان، والذي كان معه دومًا في رحلة طويلة أثناء ترحاله بين الجنوب والشمال، وكانت تلك المرة الأولى له داخل تلك البلاد. اكتشف الجهاز الذي غطته كومة من الصحف، وقد أغلق فتحة إدخال العملة، التي خلعها هو، بشريط لاصق. احتسى كوبًا آخر من نبيذ الساكي احتفالاً بالاكتشاف. كان بالخارج على متن القطار الذي غادر في اتجاه طوكيو في فجر ليلة شتوية. مر قبل ذلك على حرم معبد مهجور بعيدًا في الأعلى داخل منطقة الغابات بالقرب من أحد البراكين الخامدة، الذي ما زال الدخان يتصاعد منه. كان بجانب ذلك المعبد مقشة وكومة من الجليد كما رأى في تلك المنطقة الجبلية قطعة صخرية بارزة في مجرى مائي. كان الماء عندما يندفع من أعلاها يصدر صوتًا يشبه آخر في واحدة من المناطق الجبلية، كان الأمر

حينها أشبه بأنك تستقبل كل تلك الأصوات بأذنين مفتوحتين عن آخرهما نقل خطاب نصف مغنى ونصف معزوف بالطبول أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة لأحد الكواكب البعيدة في الكون. عندما حل الليل في ما بعد بطوكيو كانت الناس تصعد السلم وتثب أعلى أولئك الراقدين على سلالم محطة القطار، وبعدها بقليل مر مرة أخرى بمعبد حيث ظل شخص سكير واقفًا أمام دخان القرابين، ومن ثم صلى واختفى بعدها وهو يتمايل في الظلام.

لم يقتصر الأمر على الموسيقى الإلكترونية وحدها بل حتى تلك الأغاني الأمريكية التي لاقت نجاحًا سمعها من مشغل الأغاني في موطنه بشكل يختلف كليًّا عن سماعه لها مذاعة في الراديو الموجود بالمنزل، والذي تمنى أن يدير مؤشر الصوت فيه عاليًا كلما أدار البرنامج المذاع أغنية «Diana» للمطرب باول أنكا أو «Sweet Little Sheila» للمطرب ديون، أو أغنية «Gyspsy Woman» لريكي نيلسون، إلا ان ضميره كان يؤنبه في الوقت نفسه، لأنه شعر بانجذاب لتلك الأغاني التي تعد لاموسيقية. (حتى عندما اقتنى في غرفته في ما بعد مشغل أسطوانات بسماعات مثل تلك في الراديو ظل ذلك وحده المعيار المحدد لما يستحق إطلاق اسم موسيقى عليه). كانت تنبعث من مشغل الأغاني بكل ثقة أصوات مرتعشة وعويل وخوار وقعقعة، لم يكن ذلك فقط يسعده، وإنما تجتاحه رجفة من السعادة والدفء والشعور وكأنه

بين أحضان أهله. ومع النجاح المدوي لمقطوعة «Apache» على الجيتار الكهربائي أصبحت «حجيرات الإسبريسو» الباردة جدًّا وعفنة الرائحة على الطريق السريع من «مدينة استفتاء 1920»[3] إلى «مدينة انتفاضة 1938 الشعبية»[4]. متصلة بمصدر مختلف كليًّا من الكهرباء أصبح ممكنًا من خلاله اختيار أرقام أغنية «Memphis، Tennessee» في ذلك الجهاز المضيء الذي لا يتخطى ارتفاعه ارتفاع الخصر، فتجعلك تشعر بداخلك بتنامي «جمال الرجل الأمريكي» الغامض وتستمع لأصوات طقطقة وصرير الشاحنات بالخارج على الطريق السريع بشكل مختلف في تلك البداية المتناغمة الرنانة لأصوات الشاحنات في أغنية « Route Sixty-Six» فتفكر إلى أين ستأخذنا هذه النوعية من الموسيقى هذه المرة.... لا شيء سوى الصحوة!

بالرغم من أن مشغلات الموسيقى كانت تعد في منطقته أيضًا ملتقى الحفلات الراقصة التي تقام في أمسيات السبت، والتي كانت في العادة عبارة عن تراص الحضور في نصف دائرة كبيرة حول المشغل إلا أنه لم يتبادر إلى ذهنه مطلقًا وصول الأمر لمثل هذا. كان يفضل على الأرجح أن ينظر إلى الراقصين، الذين كانوا يتحولون في ضوء تلك الحانات الخافت إلى أشكال مجردة أمام تلك الأطر الضوئية الضخمة التي تبدو وكأنها تنبعث من الأرضية.

3- يقصد بها هنا مدينة كلاجنفورت.

4- يقصد بها مدينة جراتس.

لم يكن مشغل الأغاني بالنسبة له مثلما كانت أكواخ الحقول في السابق، لقد كان رمز الهدوء والباعث على الهدوء والجلوس في سكون، وحتى دون حركة تقريبًا. لا تخرجه من تلك الحالة سوى خطواته المحسوبة والرسمية تمامًا للضغط على زر التشغيل. ولم يخرج أبدًا عن وقاره أثناء إنصاته له كعادته عند سماع الموسيقى التي تأسره، وبخاصة تلك الكلاسيكية الخالصة التي تجعله يشعر وكأنه ينتمي للعصور السابقة، أو تأخذه الحماسة أو حتى يسرح بخياله فتراوده الأحلام أثناء إنصاته. وقد أخبره أحد ما ذات مرة أن الخطورة في سماع الموسيقى تكمن في إيهام الذات حينئذ بأن الشيء الذي يجب إنجازه قد تم القيام به، إلا أن الصوت المنبعث من مشغل الأغاني كان مع كل لحظة بداية يلملم شتاته حرفيًّا ويوقظ بشكل فريد بداخله كل صور إمكانياته، ويحركها بداخله ويدفعه بأصابع التشجيع.

تحولت الأماكن التي لم يكن من الممكن أن تخطر ببال أحد من قبل إلى ملاذ له أحيانًا في سنوات دراسته بالجامعة مثل دور السينما، وبينما كان يشعر عند ذهابه إلى دور السينما أنها تسلبه وقته، كان يتوجه بلا اكتراث إلى مختلف المقاهي التي يعرفها وبها مشغل أغانٍ مع محاولته استرضاء نفسه بأن أماكن التجمعات هي أماكن موثوقة وهي بذلك الاختيار المثالي للاستذكار. اتضح أن ذلك لم يكن سوى خداع وتضليل لأنه عندما كان يحاول استرجاع المادة العلمية التي تناولها بالدراسة في ذلك المكان العام في

هدوء قبل خلوده للنوم لم يكن يتبقى في عقله مما ذاكر الكثير في العادي، إلا أن ما يدين هو به لكل من تلك الأركان أو المخابئ في برودة فترة دراسته كانت تلك التجارب والمشاعر التي لا يجد لها عند تسجيلها وكتابتها الآن وصفًا آخر سوى أنها كانت رائعة. ذات ليلة في نهاية الشتاء جلس في إحدى تلك المقاهي المعتمدة للاستذكار في تلك النصوص التي قام بنقلها وكتابتها ولم يستوعب منها الكثير. كان ذلك المقهى في مكان غير معهود بالنسبة لمثله من المقاهي، فقد كان على أطراف متنزه المدينة، كما أن نافذة عرض الكعك والطاولات الرخامية به لا تتناسبان إطلاقًا مع وجود الجهاز. كان هناك مشغل أغانٍ يعمل بالفعل، إلا انه ظل كعادته دومًا بانتظار الأرقام التي سيضغط عليها هو بنفسه، وحينها يكون وجد بغيته. بعد توقف الجهاز من أجل تغيير الأسطوانة وسماع تلك الأصوات الصاخبة بما فيها من نقر وصرير أثناء البحث هنا وهناك خلال تجويف الجهاز والإمساك بالأسطوانة ومن ثم صوت وضعها في مكانها وصوت تلك الطقطقة قبل انسياب مقدمة الإيقاع، والتي هي مكون أصيل من كيان مشغل الأغاني، انسابت فجأة من أغوار قلب الجهاز موسيقى شعر معها لأول مرة في حياته بالانتشاء أو بما يسمى في اللغة المتخصصة النشوة، تلك التي لم يشعر بها إلا لاحقًا أثناء ممارسة الحب. ذلك الشعور الذي أسماه في ما بعد وبعد مرور ربع قرن على تلك اللحظة ولم يعرف كيف يصوغه: هل هو «صعود»؟ أم

«تخطٍّ للحدود»؟ أم «تجسد في شكل العالم»؟ أم يمكن صوغه بأن: «أنا الآن تلك الأغنية وهذا النغم، بكل تلك الأصوات وذلك التناغم، فمثلما كانت تلك الأغنية كنت أنا أيضًا تمامًا!». وكالعادة كان هناك دومًا قول يقابل ذلك الوصف، إلا أن تلك العبارة كانت كالعادة لا تضاهي التوصيف بشكل مطابق كليًّا (لقد ذاب في الموسيقى). ودون أن يرغب في البداية حتى في معرفة من تلك الفرقة الغنائية أو حتى المغنين بها، هل تلك نغمات صادرة من جيتار؟ هل بدأ اللحن منفردًا ومن ثم اختلط وفي النهاية صار متناغمًا؟ كان يفضل حتى تلك اللحظة أن يستمع من مشغل الأغاني للمطربين الذين يغنون بمفردهم. لقد اندهش ببساطة. ظل حتى في الأسابيع التالية على اندهاشه الذي خلا من الفضول لمعرفة اسم المغني، حيث كان يأتي ويقضي ساعات يوميًّا في هذا المقهى كي يجلس داخل ذلك الصوت الهائل، والذي يكون حينها متهورًا، عندما كان يسمح لبقية الرواد الآخرين للمكان بالاختيار (فجأة أصبح مشغل الموسيقى هو محور الاهتمام في مقهى المتنزه ذلك حيث لم يلمس أحد الأرفف الخاصة بالصحف، في حين أخذت الأسطوانات تسحب واحدة تلو الأخرى بشكل متواصل، كانت هناك فقط بضع أغانٍ مجهولة بين المجموعة) إلا أنه عرف في ما بعد أثناء استماعه للراديو، وهو ما أصبح أمرًا نادر الحدوث، اسم تلك الفرقة الغنائية لسان الملائكة الوقح، والتي لم تضف لي أو لك شيئًا بأغانيها «I want to hold your hand»،

«Roll over Beethoven»، «Love me do»، والتي انتزعت بأغانيها منه كل قيم العالم بعيدًا. كانت تلك هي الأسطوانات الأولى «غير الجادة»، إذا جاز وصفها بذلك، التي يقوم بشرائها لنفسه (ونتيجة لذلك لم يعد يشتري سوى تلك النوعية)، ويستمع لها في المقهى، حيث كان دومًا يضغط على أزرار مشغل الأغاني لاختيار أغنية « I saw her standing there» وأغنية «Things we said today». (كان يحفظ حينها الأرقام والحروف الخاصة بتلك الأسطوانات عن ظهر قلب وبشكل أفضل من النصوص القانونية التي يدرسها). حتى جاء اليوم الذي أصبحت فيه تلك الأغاني الزائفة والأصوات الخادعة بالنسبة له مجرد ضجيج. تُركت الموسيقى القديمة واندسَّت تلك التي حققت أعلى نسبة مبيعات في مشغلات الموسيقى الناطقة بالألمانية. كان ولا يزال يعتقد حتى اليوم أن أصوات المبتدئين في فرقة البيتلز تبدو عند سماعها وكأنها صادرة من الحديقة المحيطة بمصنع ورليتزر لمشغلات الموسيقى. متى سيعاود مثل ذلك الجمال الظهور في عالمنا مجددًا؟

فقدت مشغلات الأغاني في السنوات التالية جزءًا من تأثيرها المغناطيسي عليه. ربما كان جزءًا ضئيلًا، وذلك لأنه كان يفضل حينها الاستماع للموسيقى في الشقق السكنية، وبكل تأكيد ليس لأنه كبر في السن، أدرك في ما بعد عندما فكر في الكتابة عن مشغل الأغاني أن السبب في ذلك هو أنه كان يحيا في تلك الفترة

خارج البلاد. بالطبع كان لا يزال دومًا يلقي بعملة داخل مشغل الأغاني على الفور، كلما وجد نفسه أمام أحد مشغلات الأغاني والذي اعتبره صديقه المنزلي المستعد للعمل والطنين وتشغيل الأضواء الملونة سواء في دوسلدورف، أمستردام، كوكفوسترز، سانت تيريزا دي جالورا. كان ذلك أشبه بعادة أو تقليد بالنسبة له. وكان الإنصات له في ذاك الوقت يفتقد في الغالب الانتباه الكامل. إلا أن صوته أرجعه فجأة إلى محطاته البينية هناك حيث كان موطنه، فيأخذه إلى أول طريقها «إلى المقبرة » أو «إلى البحيرة» أو إلى «الحانة التقليدية»، وكان غالبًا ما يأخذه من محطة الحافلات ويقوده عادة إلى أحد مشغلات الموسيقى، فكان ينغمس كليًا في صوته على أمل أن يجعله أقل غرابة وإحراجًا وهو يسير إلى بقية الطرق.

إلا أنه كان من الممكن أن يكون لديه شيء ليحكيه عن مشغل الأغاني في الغربة والذي لم يقتصر دوره على تشغيل الأسطوانات التي بجانبه وإنما قام بلعب دور في محور الأحداث الكبرى. كان موجودًا في كل مرة على الحدود، في ما وراء تلك البلدان الغريبة، عند نهاية ذلك العالم الذي نألفه. هل كانت أمريكا هي موطن الجوكبوكس إذا ما جاز تسميتها بذلك؟ لم يجد شيئًا هناك يرسخ تلك الفكرة فكان يجده دومًا هنا وهناك في ألاسكا. فقط: هل تعد ألاسكا بالنسبة له واحدة من الولايات المتحدة؟ وصل إلى مدينة أنكوريج في ليلة عيد الميلاد وبعد قداس الميلاد فوجد

نفسه محاصرًا أمام باب الكنيسة الخشبي الصغير بأشخاص لا يعرفهم، مما سبب له شعورًا بالابتهاج، وهو شعور نادر. توجه بعد القداس إلى إحدى الحانات. ووسط تلك الأضواء الخافتة وتلك الحالة من الفوضى والهرج التي عليها السكارى داخل الحانة، رأى هناك بالقرب من ذلك المشغل المتألق الشخص الوحيد الهادئ هناك. كانت هناك امرأة من الهنود الحمر تقف بجانب مشغل الأغاني. اتجهت إليه. كان وجهها عريضًا تكسوه نظرة فخر وسخرية أيضًا. كانت تلك المرة الوحيدة التي يشعر فيها بخفقان يشبه خفقان مشغل الموسيقى وهو يرقص مع شخص ما. حتى الذين كانوا على استعداد للعراك في المعتاد تجنباهما، وكأن تلك السيدة صغيرة السن أو حتى بلا عمر أو حتى أنها هي الأكبر سنًّا في المكان. سارا بعد ذلك سويًّا عبر باب خلفي يؤدي إلى فناء يكسوه الجليد حيث تقف سيارتها المدرعة، والتي كانت نوافذها الجانبية مطلية بخطوط واضحة تمثل أشجار الصنوبر التي تمتاز بها ألاسكا والتي تطل على بحيرة داخلية خاوية. كان الثلج يتساقط. كانا يقفان على مسافة من بعضيهما، دون أن يتلامسا إلا تلامس الأيدي البسيط خلال الرقص. طلبت منه المجيء معها، حيث تعمل مع أسرتها في مهنة الصيد في قرية على خليج كوك إنليت. ومن أجل تلك اللحظة كان الأمر بالنسبة له واضحًا أنه كان من الممكن أخيرًا ولو لمرة أن يكون المسؤول عن مثل هذا الاختيار شخص آخر غيره. كان بإمكانه أن يتخيل نفسه

على الفور ينسحب مع تلك المرأة الغريبة خلف الحدود هناك في ذلك الجليد، وأن يذهب معها بشكل جاد ومرحب به للأبد ودون عودة حتى مع كل تلك المهام المرتبطة باسمه وبنوعية عمله وبكل عاداته جميعًا. هذه العيون هناك في ذلك المكان وراء المألوف تطوف في مخيلته. كانت تلك اللحظة في رواية بارتسيفال التي واجهت السؤال المخلص، وماذا عنه؟ أمام القول المناسب والموافقة. مثل بارتسيفال قال هو أيضًا نعم، ليس لأنه كان غير متأكد، فقد جاءته بالفعل الصورة، ولكنه تردد وكأن التردد متأصل ولصيق به. اختفت الصورة في صباح اليوم التالي ومعها اختفت المرأة حرفيًّا في تلك الليلة الجليدية. حرص في الليالي التالية على الذهاب إلى الحانة وينتظرها بجانب مشغل الأغاني، حتى إنه سأل عليها وبحث عنها. على الرغم من أن الكثيرين هناك قد تذكروها بالفعل، ولكن لا أحد تمكن من إخباره من أين هي!

بعد مرور ما يقرب من عقد على ذلك الأمر تذكره مرة أخرى مع شعوره بالصدمة عندما عرف أنه يجب عليه قبل عودته من اليابان أن يصطف في فترة ما قبل الظهيرة حتى يحصل على تأشيرة لدخول الولايات المتحدة الأمريكية، وأن عليه في الحقيقة الوصول إلى مدينة أنكوريج المظلمة في الشتاء والبقاء لبضعة أيام بأي حال من الأحوال في تلك المدينة التي يكسوها الثلج والتي تعلق قلبه بهوائها النقي وآفاقها الرحبة. توغل فن الطبخ

الحديث حتى في ألاسكا في تلك الفترة فتحول أي صالون[5] إلى حانة صغيرة بقائمة طعام خاصة به مما مثل رقيًا في الصورة التقليدية للصالون، وذلك بجانب الأثاث الفاتح والبسيط الذي ساد المكان. لم يعد وجود جهاز موسيقى قديم الطراز وثقيل الوزن يتناسب بعد الآن مع ذلك التطور، الذي لم تكن أنكوراج وحدها الشاهدة عليه. إلا أنه كان هناك شاهد باقٍ على وجود مثل هذا الجهاز مثل تلك الثكنة على شكل خراطيم وأولئك الأشخاص المترنحين القادمين من الزاوية البعيدة على الرصيف من الأعراق كافة. أو مثل ذلك المشاغب -أبيض البشرة كما هو معتاد- في الخارج بين طبقات الجليد محاصر من دورية الشرطة، وممدد على بطنه على الأرض، مكبل اليدين وساقاه مكبلة بشدة إلى فخذه من الخلف، كما تم تقييد كفيه خلف ظهره بالأصفاد كان مكبلًا بشكل محدب أشبه بالزلاجة، ومن ثم تم نقله جرًّا على الجليد والثلج إلى سيارة الترحيلات المفتوحة من الخلف. هناك داخل تلك الثكنة وجه أحدهم لي التحية، وكأنه يعرفني. كان هناك مشغل أغانٍ يدوي بأغانٍ بدائية تناسب المكان، حيث تراه بجانب النضد الذي ارتمت عليه رؤوس النائمين الذين سال لعابهم، وظهرت عليهم آثار تقيؤ سابق بسبب الإفراط في شرب الخمر كان من الممكن تمييز كل الأغاني الفردية لفرقة

5- نوع من أنواع المقاهي التي انتشرت في الغرب الأمريكي في القرن التاسع عشر وتميزت بباب خشبي يفتح على جانبين.

كريدينس الغنائية والتي قطعت الإنصات لها على الفور مقطوعة من الشكوى العابسة والملحة للمطرب جون فوجرتي والتي يتحدث فيها عن مسار خاطئ كان به وفقد الاتصال فأخذ يردد «لو كنت تقاضيت دولارًا واحدًا على الأقل عن كل أغنية قد قمت بغنائها!) بينما يدوي صوت إشارة قدوم قاطرة بالأسفل قادمة من اتجاه محطة القطار، التي تكون مفتوحة فقط في الشتاء لنقل البضائع، مكتوب عليها تلك الرموز التي لا يعهدها سكان أقاصي الشمال والتي تعني (سكة حديد جنوب المحيط الهادئ)، وكان صوت الإشارة هو نغمة أرغن تدوي في المدينة بنغمتها الفريدة والطويلة، يمكنك سماع نغمات الأرغن التي تدوي في المدينة كلها بنغماتها الفريدة والطويلة، كان هناك غراب مخنوق يتدلى من على حبل يمتد من الجسر وحتى مرسى المراكب الذي لا يعمل سوى في الصيف.

لكن هل كان مشغل الأغاني يصلح كجهاز للكسالى ومتسكعي المدن والأجزاء الأكثر حداثة في العالم اليوم؟ لا. على أي حال كان يتتبعها في الفترات الزمنية التي ليس بها شيء هام يمكن القيام به كعمل أو مشروع وبخاصة في الفترة التي يرجع فيها الأجانب إلى موطنهم الأصلي. كان اللجوء للسكون هو المرحلة التي تسبق لحظات الكتابة ومن بعدها يأتي بشكل منتظم التوجه لمشغل الأغاني. هل ذلك من أجل تشتيت انتباهه؟ لا. فعندما يبدأ ذات مرة في تتبع موضوع ما لا يرغب حينها إطلاقًا أن يلهيه أي شيء

في العالم عنها. تحول منزله بالتدريج إلى منزل بلا موسيقى فعليًّا، بلا مشغل أسطوانات أو ما شابهه من أجهزة. حتى الراديو كان غالبًا ما يقوم بإغلاقه بعد سماع الأخبار، بغض النظر عما سيليها من أغانٍ، حتى لو كان لديه متسع من وقت الفراغ يقضيه في ساعات طويلة من التبلد والخواء، كان يكفيه فقط أن يتخيل نفسه جالسًا أمام التلفاز بدلًا من الجلوس لحاله، وحينها كان يفضل الحالة التي هو عليها عن مشاهدة التلفاز. أما الذهاب إلى دور السينما، التي كانت بالسابق تمنحه نوعًا من الأمان بعد الانتهاء من العمل، فتزايد تجنبه لها، حيث كان يراوده فيها شعور بالوحدة. وقد كان يخشى ألا يتمكن من العودة لحالته العادية أو لا يجد غاية بحثه أو أن يضطر للخروج في منتصف الفيلم، وكان ذلك سبيله الوحيد للهروب من كوابيس بعد الظهر التي تنتابه. هل لجأ إذًا إلى مشغل الأغاني حتى يلملم شتات نفسه مثلما حدث في البداية؟ حتى هذا لم يعد ممكنًا الآن. ربما كان بإمكانه، وهو ما حاول القيام به بالفعل على مدار الأسابيع التي قضاها في سوريا، أن يتهجأ أعمال القديسة تيريزا الأفيلية ويشرح عملية «الذهاب للجلوس» بعد جلوسه للكتابة مع بعض المقارنة الصفيقة بين كلا الحالين. تأثرت القديسة بجدال عقائدي دار قبل عصرها، في بداية القرن السادس عشر، بين مجموعتين حول طرق التقرب للرب: المجموعة الأولى، تلك التي آمنت بأن الاستجماع هو السبيل لذلك، والتي تعني recogidos وهو أن تستجمع النفس قواها

وما شابهها. أما الجماعة الأخرى التي كانت تسمى «الاختلائيون» الذين كانوا يختلون ويتركون أنفسهم بكل بساطة وتقاعس لما يرغب الرب في أن يفيض به على أرواحهم. بدت تيريزا الأفيلية أقرب ميلًا للاختلائيين عن المستجمعين، وذلك لأن الإنسان إذا ما أجهد قواه الفكرية وتطلع للمزيد من الرب، فيمكن أن يسيطر عليه الشيطان، وهكذا جلس هو أيضًا إذا ما جاز القول بجوار مشغل الأغاني الخاص به، ليس ليركز في مواصلة الكتابة، وإنما لكي يتخلى عما يفعله من أجله. ودون أن يفعل أي شيء سوى أن يجلس وكله آذان صاغية للنغمات المنبعثة من المشغل، وخاصة لأن تلك الموسيقى لم يكن يصادفها في الأماكن العامة، وإنما كان يختارها بنفسه، وكأنه هو شخصيًا الذي يعزفها. وقد تجسدت أثناء ذلك المداومة بداخله الذي يختلي. أخذت صور تتدافع بين الحين والآخر إلى رأسه وكانت قد أصبحت منذ فترة طويلة خامدة. لم تكن تحتاج إلى شيء آخر سوى أن يقوم بتسجيلها. بينما هو جالس بجانب المشغل يستمع إلى أغنية «Redemption song» لـ بوب مارلي اقتحمت من بين أشياء أخرى شخصية نسائية لم يكن مخططًا لظهورها حكايته، التي كان منكبًّا عليها ليكتبها، وذلك بعد استماعه المتكرر كل يوم لأغنية «Una notte speciale» للمطربة الإيطالية آليس. وبخلاف أنه كان قد أفرط في الشراب في ذلك اليوم فقد لاحظ أن صورة تلك الشخصية خطرت برأسه عند الاستماع لنفس الأغنية في اليوم التالي.

لم يكن ينصرف عن أوقات التفكير تلك فقط إلى السير بعيدًا قدر المستطاع (لم يتم العثور عليها في البيت أو على الطاولة عن قصد، كان يرى أن التفكير الملزم لا يتأتى سوى كتمييز ومقارنة)، وإنما أيضًا إلى الذهاب إلى تلك الحانات التي بها مشغل أغانٍ. عندما جلس في وقت لاحق في إحدى الحانات الخاصة بالقوادين، والتي أصيب مشغل الموسيقى بها بطلق ناري أو عندما جلس في أحد المقاهي التي يجلس عليها العاطلون عن العمل، والذي حوى طاولة مخصصة لأولئك الذين أطلق سراحهم من مستشفى الأمراض العقلية القريبة منها، كان من بها أشخاص صامتون بلا حراك وذوو وجوه شاحبة. لا تتحرك وجوههم سوى لبلع الأقراص التي يتناولونها وهم يحتسون الجعة. لا أحد يريد أن يصدق أنه هنا ليس بسبب البيئة السائدة هنا وإنما للاستماع المتكرر لأغنية «Hey Joe» وأغنية « Me and Bobby McGee». ولكن ألم يعنِ ذلك أنه كان يقتفي أثر مشغل الأغاني حتى ينتشله بعيدًا عن الحاضر؟ ربما. إلا أن العكس هو الصحيح في الغالب. فقد حصل بأي حال من الأحوال على نسخته الخاصة من الحاضر وذلك بالإضافة إلى المشغل وكل ما كان حوله. فلو كان من الممكن لاتخذ له مستقرًا هناك في تلك الحانات حيث كان المكان بكامله بالإضافة إلى جزء من الحيز الخارجي للمكان صوب عينيه. وصلت به الحال الآن مع مشغل الأغاني سويًا مع الفانتازيا، ودون ذلك الرصد الذي يبغضه، في الغالب إلى حالة من تعزيز الذات

والتحول للحاضر حتى للمشاهد الأخرى. حتى إن الأشياء اللافتة للنظر والمحفزات لأي من تلك المشاهد التي يتصورها لم تعد تسترعي انتباهه مثل الأمور المألوفة، حتى وإن كانت أشكالاً وألوانًا معتادة، بالإضافة إلى مثل ذلك الحاضر المعزز شيء ثمين لا يقدر بثمن ويستحق أن يتم تناقله. مثل هذا لا يمكن أن يقدم كالعادة سوى في كتاب يثير التفكر والتدبر.

فقد ورد فيه حينها ببساطة عندما يسير الرجل تتحرك شجرة، كانت الحافلة الكهربائية صفراء اللون تنعطف متوجهة لمحطة القطارات. كان تقاطع الشوارع على شكل مثلث، وقفت النادلة عند الباب، وكان الطبشور على حافة منضدة البلياردو. كانت السماء تمطر و.. و... و... نعم، هكذا كان الأمر. بدأت صياغة الحاضر! حتى تلك العادات الصغيرة الخاصة بنا «نحن محبي مشغلات الموسيقى» وأنواعها القليلة تستحق منّا هكذا اهتمام. بينما هو عادة يضع يده إلى خصره وهو يضغط على زر مشغل الأغاني وهو يميل بعض الشيء عليه حتى يكاد يلامسه، اختار آخر أغنية وهو جالس مباعدًا بين ساقية عاقدًا ذراعيه أمامه مثل فني متخصص، في حين أبقى الثالث أصابعه تتلاعب في الهواء وهو يلمسه كعازف بيانو، ومن ثم هل يذهب على الفور، حيث كان واثقًا بما فعل أم يبقى مثل الذي ينتظر نتيجة محاولته، إلى أن يبدأ الإيقاع. (وربما غادر بعدئذ إلى الشارع بالخارج حتى دون أن يواصل الاستماع) أو ربما سمح للآخرين فقط بشكل عام

بالبدء بكل أغانيه، أولئك الذين صاح وهو في مكانه على الطاولة ليبلغهم برموزها التي حفظها عن ظهر قلب. يبدو أن الأمر هو أنهم جميعهم يرون في مشغل الأغاني كائنًا حيًّا، أو نوعًا من الحيوانات الأليفة: «لا يرغب منذ أمس في العمل»، «لا أدري ما الذي أصابها اليوم، إنها تدور». هل كان أحد تلك الأجهزة بالنسبة له مثل سواه؟ لا. كانت هناك اختلافات حاسمة بين نفور وحنان تام أو احترام كامل واضح والحب في الحال أو الإجلال بوضوح. هل نحن أمام منتج متسلسل؟ قبل ظهور أثر البشر عليه لم يكن شكل الجهاز في حد ذاته ليس بذات الأهمية بالنسبة له مع مرور الوقت. ولأجله يمكن اعتبار مشغل الأغاني كمنتج حربي، مصنوع أيضًا من الخشب أو حتى وإن لم يكن اسمه ورليتزر أو صندوق الموسيقى وصار يسمى «سيمفونية أو بوق». وكان من الممكن أن تجد الشكل الخارجي للصندوق وهو واحد من علامات المعجزة الاقتصادية الألمانية بلا أضواء مطلقًا أو يحتوي على زجاج داكن وغير شفاف أو حتى بلا صوت أو تم تصميمه من الخارج بشكل بارد حيث تضيء الاختيارات المتعددة بعد إلقاء العملة في الفتحة المخصصة لها، وبعد الضغط على الزّر يبدأ عندئذ صوت الطنين يصدر من داخل الجهاز ترافقه إضاءة البحث بالخارج على الواجهة الزجاجية السوداء. لم يشعر في أي مرة سابقة أن هناك ما هو أكثر أهمية من ذلك الصوت المميز لمشغل الأغاني وهو يخرج من عمق الجهاز وكأنه يخرج من أسفل طبقات صامتة

كثيرة. ذلك الهدير الفريد الذي يمكن في الغالب سماعه يشبه «هدير المسيسيبي» في القصة التي كتبها ويليام فوكنر عندما اجتاح التيار المائي الأرض على مرمى البصر وأغرقها أسفل مياه البحر الساكن بلا حراك. كان يقنع نفسه عند الحاجة بأن مشغل الأغاني المثبت على الحائط يصدر صوتًا مسطحًا وذو صدى أكثر من أي مذياع جيب وأنه عندما يصبح الصوت في صخب الحانات غير مسموع، فيقوم حينها بخلخلة الهواء في شكل اهتزاز إيقاعي معين، يسمع من خلاله مقطعًا أو حتى مجرد إيقاع من الموسيقى التي اختارها بنفسه ومن تلك الاهتزازات المتتالية تعزف الأغنية بأكملها داخل أذنه. إلا أنه كان يشعر بنفور من تلك المشغلات التي لا تصدر منها الأغاني على حسب اختيار المستخدم في كل مرة، وإنما يتم اختيارها بشكل شخصي في المكان الذي يكون فرعًا منفصلًا من سلسلة موجودة منتشرة هنا وهناك في أرجاء البلد، وتكون تلك الأغاني هي نفسها في كل الفروع دون تغيير وتوضع من مراكز رئيسة بلا اسم، نعم توضع بشكل إجباري. لم يتصور أن مثل تلك المراكز لها وصف آخر سوى أنها مافيا، مافيا مشغلات الأغاني. لم يكن في تلك الفترة في البلدان كافة سوى تلك النوعية من الأماكن المسلسلة، التي تفتقد إلى التنوع أو وجود إمكانيات اختيار لأغانٍ خارج تلك الحديثة حاليًا. تلك التي طالت أيضًا مشغل الأغاني ورليتزر عتيق الطراز، والذي ليس ببرامج تشغيله إمكانية الكتابة الآلية، وإنما به برنامج مطبوع

مسبقًا ومُعد سلفًا من خلال كتابة لوحات صغيرة مدون عليها أسماء المطربين والأغاني أسفل الزجاج الخارجي الشفاف لسطح المشغل. لكن الغريب أنه تجنب أيضًا كل مشغلات الأغاني، التي كانت قائمة الأغاني الخاصة بها أشبه بقائمة الطعام في مطاعم بعينها متراصة من أعلى لأسفل ومن اليسار إلى اليمين وكتبها شخص واحد بخط يديه على الرغم من أنه في العادة كانت كل أسطوانة معروفة له وحده. لم يكن يفترض أن يبدي النظام الخاص بمشغل الأغاني له أي نية، حتى وإن كانت نبيلة، أو أي تذوق أو نقطة بداية أو تناغم، كان ينبغي أن يقدم له الفوضى مع حصته من المجهول (والتي كانت تتزايد مع مر السنين) وأيضًا الكثير من المقطوعات الغنائية المناسبة لحالة الهرب والتي تبدو بالتأكيد أكثر قيمة وبخاصة تلك الألحان التي تناسبه في تلك اللحظة (كان وجود عدد قليل من الأغاني للاختيار من بينها على ذلك السطح الداكن كافيًا). حتى صناديق الموسيقى تلك كان بإمكانه التعرف عليها من خلال السطح الخارجي بها، الذي تظهر عليه قائمة الاختيارات، والذي كان عبارة عن مزيج من الكتابة الآلية وخط اليد، وبصفة خاصة من خلال ذلك التنوع في الخطوط اليدوية، التي كانت غالبًا ما تختلف من لوحة لأخرى. فتجد لوحة مكتوبة بحروف منفصلة عن بعضها، وأخرى مكتوبة بالحبر، وغيرها مكتوبة بخط متعجل وبكتابة اختزالية أشبه بطريقة كتابة السكرتارية في مسلسل المحقق مانير. إلا

أن غالبية اللوحات، حتى مع اختلاف اتجاه كتابة الحروف، تدل طريقة كتابتها على الاهتمام والجدية، وإن كان بعضها مكتوبًا بخط وكأنه منقوش أشبه بخط الأطفال. وفي خضم كل تلك الأخطاء قد تعثر على لافتة مكتوب عليها بشكل صحيح ومتكامل (فتجد بها كل العلامات الخاصة باللهجات وأيضًا علامات الترقيم الفاصلة) أسماء الأغنيات الأجنبية التي ربما تبدو للنادلة المعنية بتشغيل الجهاز غريبة للغاية. كان الورق -لوحات أسماء الأغاني هنا وهناك- قد اصفر وبهتت الكتابة عليه وأصبحت صعبة القراءة والتمييز، وربما أيضًا تم لصق ورقة مكتوبة في وقت قريب باسم أسطوانة أخرى عليها. إلا أن الورقة القديمة لا تزال موجودة حتى وإن كانت نصف ممسوحة أو كان يصعب قراءة ما عليها، فلا يزل لها تأثير داخلي قوي. ومع الوقت أصبحت النظرة الأولى، حتى وإن كانت الوحيدة، على خانة الاختيارات الموجودة على جهاز مشغل الموسيقى بديلًا عن الأسطوانات التي يمكن تمييزها بمثل تلك الخطوط اليدوية. وكان أحيانًا ما يستمع إلى أسطوانة في الحال، إذا ما بدت له غريبة أو مجهولة بشكل تام. فقد اكتشف ذات مرة وهو جالس أمام جهاز مشغل للأغاني في مطعم ذي طابع شمال إفريقي في إحدى ضواحي باريس (والذي كان واضحًا من خلال لوحة الأرقام الفرنسية الموحدة بشكل عام عليه، أنه يعمل تحت مظلة مافيا مشغلات الأغاني) وجد ملصقًا على حافته مكتوب عليها بخط اليد بحروف كبيرة للغاية وغير

منمقة وكانت الحروف مكتوبة وكأنها أشبه بعلامة تعجب فقام باختيار الأغنية العربية المهربة. كان هناك مقطع ذو صدى بعيد يرافقه الآن أثناء إنصاته سيدي منصور وأخذ يتكرر مرارًا. أخبره عامل البار، الذي أخرجه بهذا الحديث من حالة السكون التي كان عليها، أن هذا اسم «لأحد الأماكن غير التقليدية والمميزة» والذي «لا يمكن الذهاب إليه هكذا ببساطة».

ولكن هل يجب أن يعني ذلك أنه يأسف على اختفاء تلك النوعية التي كان يفضلها من مشغل الأغاني، ذلك الجهاز الذي ينتمي للماضي وربما لن يكون له فرصة ثانية للظهور في المستقبل؟ لا. لقد أراد فقط قبل أن يختفي الجهاز بعيدًا عن ناظريه أن يقر ويؤكد، ما الذي يمكن أن يعنيه له شيء مثل هذا، وبخاصة ما الذي يمكن أن يصدر من مجرد شيء مثله.

في مطعم ملحق بإحدى المنشآت الرياضية بمدينة سالزبورج وفي أمسية صيفية أضاءها نور القمر كان مشغل الأغاني موضوعًا بجانب باب المطعم المفتوح في الهواء الطلق. جلس نزلاء المكان في الشرفة أمام المطار. وإلى كل منضدة يجلس نزلاء مختلفو الجنسيات، فقد كان ذلك المطعم يقدم خدماته أيضًا للمشاركين في المخيم المقام داخل المنشأة، فتجد نزلاء من هولندا وآخرين من إنجلترا وغيرهم من إسبانيا. كل مجموعة منهم تتحدث بلغتها الأم. كان ذلك في بداية الستينيات ولم يكن

حينها تم إطلاق اسم مطار سالزبورج عليه بعد. هبطت آخر طائرة والشمس في طريقها للغروب. كانت الأشجار الموجودة بين الشرفة والملعب أشجار بتولا وأشجار حور وكانت أوراقها ترفرف بشكل متواصل في الهواء الدافئ في قلب السماء ذات اللون الأصفر الداكن. كانت هناك مجموعة من المواطنين يجلسون مع زوجاتهم إلى إحدى الطاولات. كان أولئك الأعضاء العاملين بالاتحاد الرياضي لمنطقة ماكسجلان في مدينة سالزبورج. قد خسر منتخب كرة القدم حينها مرة أخرى مباراته التي لعبها في فترة بعد الظهيرة في دوري الدرجة الثانية وسيهبط جراء ذلك. ولذا تجمع المعنيون بالأمر في المساء الآن ليتحدثوا بالأمر في حين كان بقية الأشخاص يتناوبون باستمرار الذهاب والإياب تارة من خيام المعسكر ومن بين الأشجار تارة أخرى إلى الفتحة الخاصة بالمطعم. أثناء حديثهم كانوا يتأملون الأشجار: كم كبرت وكيف نمت بشكل جيد منذ ذاك الوقت الذي قام أعضاء الاتحاد بغرس فسلاتها في صفوف متتالية في الأرض الطينية هناك بأنفسهم سويًا بعد أن أزالوا الحشائش؟! كان مشغل الأغاني يعمل بالخارج كل يوم عندما تبدأ السماء في كل مساء تظلم تدريجيًا. كانت هيلين شنايدر تغني بصوتها الجريء أغنية «Hot summer nites». كان المطعم من الداخل خاليًا تمامًا وكانت الستائر البيضاء ترفرف إلى الداخل من نوافذه المفتوحة، إلا أنه كان هناك أحد يجلس في أحد الأركان يبكي بلا صوت، كانت

امرأة صغيرة السن.

بعد مرور أعوام. كان هناك داخل حانة على ربوة منطقة الكارست بيوغسلافيا بعيدًا بعض الشيء عن الطريق السريع ستانيل (أو كما يقال بالإيطالية سانت دانييل ديل كارسو) مشغل موسيقى ضخم عتيق الطراز بجوار الدولاب في الممر المؤدي إلى المرحاض. ومن خلف لوح الباغ يمكن رؤية الأسطوانات الدائرية. كان تشغيل الجهاز يتطلب وضع فيش بلاستيكية بدلًا من العملة المعدنية، ولم يكن الضغط على الزر بالشيء الكافي، فلم يكن هناك سوى زر واحد بل كان الأمر يتطلب إدارة مؤشر حتى تتوافق علامة الاختيار والرقم المرغوب. وحينها توضع الأسطوانة في مكانها بأناقة تضاهي حركة ثنية الكوع التي يقوم بها نادل متأنق وهو يقدم الطعام. كانت تلك الحانة رحبة ومتسعة للغاية وبها غرف متعددة، تلك التي كانت في تلك الأمسية في بداية الخريف ممتلئة عن آخرها برواد من بالشباب فقط تقريبًا بالرغم من وجود منخفض جوي يعصف بالربوة بالخارج قادم من المرتفعات الشمالية يسمى رياح بورا الباردة؛ كانت الحانة تشهد احتفالًا بتخريج دفعات متعددة من مدارس من جمهوريات يوغسلافيا كافة، وقد التقوا هنا لأول مرة وعلى مدار عدة أيام. تسللت بعد ذلك إلى الداخل صافرة قطار الكارست المميزة عبر الرياح القادمة من الصخور بالأعلى مختلطة بذلك الصوت المظلم للتلفريك الجبلي. على الناحية المقابلة لصورة تيتو المعتادة

المعلقة على الحائط كانت هناك صورة أخرى لشخص مجهول، إلا أن تلك الصورة كانت ملونة وتفوقها بكثير في الحجم؛ كانت صورة للمالك السابق للحانة والذي رحل عن الحياة وقد ذكرت زوجته أنه لم يكن من هنا (حتى وإن كان من قرية بالوادي). كانت الأغنية المذاعة من مشغل الأغاني في تلك الليلة والتي تناوب على اختيارها التلاميذ تتكرر مرارًا بين جنبات المكان وأروقته، وكانت تعد أغنية حماسية تختلط بمرح الطفولة، ومن المنظور الشعبي فهي أغنية راقصة على نمط إيقاعي منسجم، وكان المقطع المتكرر بها عبارة عن كلمة واحدة وهي (يوغسلافيا!).

ومرة أخرى وبعد مرور أعوام. في أمسية صيفية وكان الوقت لا يزال قبل الفجر ولكن تلك المرة تغير المكان فكان على الناحية الأخرى من الكارست في إيطاليا، أو بالأصح على حدود الأرض الكلسية التي كانت في السابق قاعًا للبحر والتي أصبحت الآن عبارة عن سهل مستوٍ بلا صخور. كانت تلك المنطقة تتميز بوجود قضبان سكك حديد مدينة مونفالكون، والتي يوجد على الجانب الآخر منها طريق يؤدي إلى الغابة الصخرية. كانت المنطقة المُلاصقة لخط السكة الحديد مغطاة بغابة صغيرة من أشجار الصنوبر، أما هذا الجانب من مبنى المحطة فكان محاطًا بنباتات مختلفة بشكل كامل من أشجار الأرز والنخيل ونبات الدلب وشجيرات الردندرة. أخذت المياه تسيل بغزارة من حولها بعد أن غفل أحدهم وترك صنبور النافورة على رصيف المحطة

مفتوحًا. أما مشغل الأغاني فكان موجودًا في حانة تركت نوافذها مفتوحة عن آخرها بعد قيظ النهار، حتى الباب أيضًا ترك مفتوحًا على الخارج حيث شريط القضبان الحديدية. كان المكان خاليًا تقريبًا من الأثاث وكانت القطع القليلة الموجود مكومة على الجانب. نظف أحدهم المكان منذ لحظات فكانت أضواء مشغل الموسيقى تنعكس على بلاط الأرضية المبتل. أضفت الأضواء بريقًا سرعان ما اختفى عندما جفت الأرضية بالتدريج. بدا وجه الفتاة -عاملة البار- من الشباك أصفر وباهتًا وذلك بالمقارنة بالمسافرين المنتظرين بالخارج والذين صبغت الشمس بشرتهم بالسمرة. بعد إقلاع القطار السريع تريسيتي-فينيسيا بدا المبنى بعدها خاويًا سوى من مراهقين اثنين كانا يتصارعان سويًا بصوت عالٍ على أحد المقاعد، وكانت المحطة في تلك اللحظة هي حلبة النزال. انتشر العث بين جنبات أشجار الصنوبر المظلمة في منطقة الكارست. مر قطار بضائع طويل ذو عربات مغلقة بأختام من الشمع. كان القطار يبدو من الخارج معتمًا في ما عدا تلك الأختام الصغيرة التي تتلوى على الحبال التي على العربات من الخارج. ومع السكون الذي أطبق على المكان بعد مروره؛ حان وقت اختفاء طيور السنونو وبداية ظهور فئران الحقول وبدأ يسري في المكان صدى مشغل الأغاني. ما زال الصبيان يتعاركان بعض الشيء. خرج موظفان من مكتبيهما على الرصيف على سبيل الصدفة وليس بهدف الاستماع، كما

خرجت عاملة النظافة من غرفة الانتظار. فجأة ظهر في كل مكان في المنطقة أشخاص قد تم تجاهلهم حتى الآن. هناك شخص نائم على المقعد المجاور لشجرة البقس ومجموعة كاملة من الجنود على العشب خلف المرحاض دون أي أثر لأمتعة معهم. وعلى رصيف المحطة هناك رجل أسود البشرة ضخم البنيان يستند إلى منصة تحمل اسم مقاطعة أوديني. لم يكن يحمل أي أمتعة معه ولا يرتدي سوى قميص وبنطال وكان غارقًا في قراءة كتاب. ومن وراء دغل الصنوبر ترى زوجًا يلي الآخر من الحمام المُنحني للأسفل. كان الأمر يبدو وكأن كل من هنا ليسوا مجرد مسافرين وإنما هم سكان أو مستوطنو منطقة محطة القطارات التي يوجد في مركزها نافورة تفور منها مياه الشرب فتتطاير مع هبات النسيم تاركة آثار الكثير من النعال المبتلة في محيطها على الأسفلت، تلك التي يمزج آخر من شرب منها الآن آثار حذائه فيها بوضوح. بعد مرور القليل من الوقت من السير على الأقدام بمحاذاة قضبان السكة الحديدية يظهر نهر تيمافو في منطقة الكارست بأذرعه الثلاث التي كانت في عصر الشاعر فرجيل كما ذكر في ملحمته الإنيياذة تسع أذرع والذي اتسع الآن وأصبح يصب في البحر المتوسط. كانت الأغنية التي تصدح الآن على مشغل الأغاني تحكي عن خطاب كتبته فتاة شابة ابتعدت عن موطنها وعن كل ما ألفته وحلمت به، والذي أصبح الآن يصيبها بتعجب جريء وربما أيضًا حزين. كانت أغنية «Anchorage، Alaska»

للمطربة ميشيل شوكد تدوِّي في منطقة محطة القطارات المسائية لمدينة مونفالكون بصوت الصديقات.

تمكن في بعض الأحيان خلال فترة إقامته في سوريا والتي امتدت لأسابيع في التدبر في ما قام بفعله: «لقد قمت بعملي، الذي يشبهني!»، كما جالت برأسه فجأة تلك الخاطرة «لديّ وقت» دون أن تتدافع في رأسه تلك الهواجس الخفية المعتادة وكأنها الفكرة الوحيدة المسيطرة عليه.

كانت السماء تمطر والرياح تعصف كل يوم تقريبًا على تلك الربوة في قشتالة، فكان يستخدم أقلامه من أجل تثبيت الستائر داخل تلك الشقوق بالنافذة. لا تزال الضوضاء هنا في تزايد مستمر، حيث تطور الوضع من تنظيف السمك أمام باب المطبخ إلى تقطيع يومي لحيوانات أخرى باستخدام الفأس. بدت المسارات المتعرجة في سلاسة على سطح البادية غير المستوي وكأنها مضمار لسباق الدراجات البخارية (علم أن سوريا قد تقدمت بالفعل لاستضافة بطولة أوربا للدراجات البخارية). كان يشاهد رياضة على شاشة التلفاز، حيث ظهر اللاعبون الذين يبدون كشخصيات ألعاب الفيديو وهم يقفزون في الهواء. كان أمرًا يستحق الإعجاب، إلا أن طنين ذلك الدبور الذي يدور حول رأسه وهو جالس إلى الطاولة الآن بدا له وكأنه نعمة بالمقارنة بما يراه على التلفاز. كان دومًا يعود من جولته بالخارج وهو ممتلئ

بالقوة، ذلك النوع الخاص به من القوة، الذي يدفعه للعودة للعمل. إلا أنه سرعان ما كان يفقد تلك القوة فجأة في خضم ذلك الضجيج. لم يكن ذلك الصخب يخرب الأمر للحظة من الوقت فقط وإنما للأبد. المقلق في الأمر هو أنه يواجه خطر الاستهانة بنشاط مثل استشعاره بالصور وإيجاد الكلمات المناسبة لصياغتها وهو الأمر الذي يتطلب الكثير من العزلة، إلا أنه من ناحية أخرى كان أحيانًا ما يشرد في الحقيقة أثناء حالة السكون. شعر في الحال بقوة أنه عليه الخروج من هذه الحالة من الضعف والارتياب بل والمزيد من اليأس ومن ذلك المحيط من حوله من أجل المثابرة لمواصلة ما يفعل. كان يوميًّا يمر بذلك القوس الموجود عند واجهة كنيسة سانت دومينجو. لا. لا يمكن تسمية تلك بالواجهة بالمقارنة بتلك المباني الحديثة التي تقع خلفها. كان الهدوء ينبع من داخلها وما كان عليه سوى استقبال ذاك الشعور. كان أسلوب السرد القصصي الذي يتجلى في تلك التماثيل يدعو للدهشة؛ حواء التي جلبها الرب من أجل آدم كانت تقف هنا في الوقت نفسه ظهرها لظهر زوجها، وكيف كان آدم يتطلع في المشهد الذي يلي ذلك إلى شجرة المعرفة وإلى مشاهد القيامة، وعن واحدة من النساء التي منحها الرب لأول رسول في السلسلة الطويلة من الرسل والتي خرج من رحمها الكثيرون يتراصون حتى مسافة بعيدة في الخلف. كان من الممكن رؤية ذلك من خلال وضعيات الجسم الناطقة. في حين يقف التمثال الأخير بلا حراك ويبدو

أنه ما زال لا يعلم شيئًا. كان يسير قبل العمل بخطوات صغيرة إلا أنها اتسعت ليس بسبب شعوره بالنصر وإنما لأنه كان يشعر بالدوار، فبالرغم من أن صعود المرتفعات يجعلك تتنفس بشكل أعمق وتفكر بذهن أكثر صفاء، إلا أنه لا ينبغي أن يكون الجبل منحدرًا للغاية وإلا أصبحت الأفكار محمومة. فضل الصعود من الناحية الأخرى مع التيار حيث كان يخشى السير في عكس اتجاه تيار الهواء. كان للأمر علاقة بالطاقة الصادرة من هذ التيار، وإذا ما أراد التوقف عن الاجترار كان يسلك ذلك الطريق على قضبان خط السكة الحديد المهجور، الذي يربط بين سوريا وبرغش، أو يواصل السير باتجاه المدينة ليخرج إلى الظلام، وحينها كان عليه أن يحرص لموضع قدمه في كل خطوة. وفي حال عاود الخروج من ظلمة البادية متوجهًا إلى الشوارع، كان يشعر بالتوتر الشديد من تلمس الطريق، حتى إنه كان حينها يرغب في البقاء أمام مسرح شخصيات سانت دومينجو ليخفف من شدة توتره ويتخلص من تيبس وجهه. كان يكرر نفس الطرق التي يسلكها مع إضافة القليل من التغيير يوميًا. بدا له الأمر حينها وكأن بقية الطرق التي لا يسلكها تنتظر أن يلقاها يومًا ما. على الطريق الذي سلكه انطونيو ماتشادو أثناء تنزهه كانت هناك أكوام متراكمة من المناديل المستعملة والواقيات الذكرية. لا يسير على مدار اليوم في المنطقة القاحلة المحيطة بذلك الطريق سوى رجال من كبار السن، وفي الغالب بمفردهم بأحذية عفا

عنها الزمن. كانوا يسحبون من جيوبهم تلك المناديل المطوية بتكلف وينفضونها قبل أن يتمخطوا بداخلها. قام بوضع قاعدة لنفسه قبل البدء في العمل وهو أن يلقي التحية على واحد منهم على الأقل، وذلك بقصد أن يبادله أحدهم التحية أيضًا، حتى وإن لم يرَ لحظة الابتسام فلم يكن يرغب في الذهاب لغرفته. حتى إنه كان في بعض الأحيان يظل واقفًا ليتخطاه أحدهم في السير من أجل أن يقول له أحدهم «مرحبًا!» ويومئ له برأسه في تحية. لا يزال يقرأ يوميًا الجريدة بمساعدة القاموس وهو جالس بجوار النافذة الكبيرة داخل الحانة الرئيسة في سوريا. كانت كلمة Llavero تعني ميدالية المفاتيح؛ شاركت سيدة في مظاهرات في مدينة براج بميدالية مفاتيح مرفوعة للأعلى. كانت كلمة dedo pulgar تعني إصبع الإبهام؛ ذلك الإصبع الذي رفعه الرئيس الأمريكي في الهواء دلالة على نجاح زيارته المكوكية إلى بنما، أما puerta giratoria فتعني الباب الدوار (الذي دخل منه صامويل بيكيت في ذلك الوقت إلى مطعم زهرة الليلك). لم يقرأ الخبر الخاص بتنفيذ حكم الإعدام في تشاوتشيسكو وزوجته إلينا بارتياح، وإنما بخوف قديم من التاريخ أيقظه بداخله الخبر. عندما كان يشعر باليأس كان دومًا ما يتجه إلى مواصلة فهم سمات الشخصية عند ثاوفرسطس. اكتسب الكثير منها حتى وإن أعجبته فقط في بعض مساراتها الخاصة، والتي أدرك أنها ربما تبدو مثل مساراته. ارتأى أن ضعفها وحماقتها لم تكن

سوى علامات على البشر الذين يشعرون بالوحدة ولا يستطيعون التعامل بسلاسة تتماشى مع المجتمع، والذي يمثله في هذه الحال البوليس اليوناني، من أجل الانتماء إليه بطريقة ما. لعبوا لعبتهم المضحكة بشجاعة اليأس، وإذا شعروا بالحماسة أو الشباب أو التفاخر أو أنهم الأكثر وضوحًا، كانوا دومًا أصحاب اللحظة الخطأ، ويصل الأمر في الغالب أنهم لا يجدون مكانًا لهم بين غيرهم من الناس حتى بين أطفالهم وعبيدهم. كان بين الحين والآخر يرفع ناظريه لينظر من النافذة إلى إحدى أشجار الدلب. كانت أوراقها لا تزال رقيقة، وإلى شجرة قيقب جبلية بجوارها قد تجردت من أوراقها بالكامل فلا فائدة منها تقريبًا، إلا عند هبوب عاصفة قوية حينها تتراص العصافير عليها فتبدو أشبه بالبراعم، كانت العصافير تقف ثابتة بلا حراك أما الأوراق المدببة بجانبها فكانت تهتز وترفرف وتتشنج أكثر من الطيور نفسها. انتابه أقوى شعور بالمكان حتى الآن وهو بالأسفل عند الجسر أعلى النهر، إلا أنه بدا أقل بسبب الجسر الحجري ومياه الشتاء الداكنة التي سلكت طريقها إليه بسبب اللافتة الموجودة على قمة الجسر والمكتوب عليها: نهر الدويرة.

كانت هناك واحدة من الحانات على القضبان اسمها «Algeria del Puente» أي سعادة الجسر. حالما قرأ اللافتة التف على الفور واتجه لطريق جانبي. قامت الرياح خلال القرون الماضية بحزّ الصخور الرملية الصفراء من ضفتي النهر المنحدرة والتي

لا تخلو من الصخور وحكها وتلوينها ونقشها. كما برزت من الأرض كتل جليدية مستديرة على بقايا أسوار المدينة التي تقع بعيدًا خارج حدود البادية. رأى بعض القصور القديمة في منطقة بلازا مايور في مدريد منقوشة على أرضية من الحصى المغطى بالإسمنت الطبيعي كانت غارقة في قاع البحيرة المتجمدة الآن. تمكن أثناء سيره من القراءة قليلًا عن طبيعة المكان وقد كان ذلك أمرًا ضروريًّا، وأدرك أن جغرافيا إسبانيا كانت دومًا خادمًا للتاريخ، من الفتوحات وحتى ترسيم الحدود. بدأ الآن فقط يولي المزيد من الاهتمام لـ«رسائل الأماكن». تحيا الألوان في بعض الأحيان في الشتاء كما هي الحال الآن. فبينما تتخذ السماء لونًا كبريتيًّا، أزهر بالأسفل حقل بور، واكتست حقول الحطام بالطحالب الخضراء. في حين كان كل شيء في ما عدا ذلك يقبع في حالة نعاس، في وقت الشفق شكلت وردة المسك قوسًا أحمر مشرقًا. رفرف زوج من طائر العقعق بالأعلى وكانت أجنحته تجعل الهواء يتلألأ كلما حركهما بسرعة مثل دوران العجلات بسرعة. وفي اليوم الذي لم تمطر فيه السماء، كانت الزوابع الترابية تحيط بالمدينة، وعندها عرف كيف يبدو الصيف هنا. تحرك ظل سحابة أعلى الربوة القاحلة والتي بدت وكأنها انتزعت من باطن الأرض، كان كل شيء هنا مغطى بظلال السحب، تلك التي أتت من قشتالة.

لم تكن هناك رياح في وقت الصباح وأظهر نور الشمس الصافية

كلًّا من منطقتي لاسييرا الشمالية والشرقية أيضًا لأول مرة والثلج يكسوهما، وبالرغم من أن بين كلتا السلسلتين الجليتين مسافة يمكن قطعها في رحلة جوية، إلا أنه رأى المنحدرات المتلألئة مغطاة بظلال السحب التي لا تتحرك وقت سكون الرياح. كان تفكيره منشغلًا للغاية بالثلج حتى إنه نفض فجأة الثلج بعيدًا عن حذائه بشكل عفوي وهو يقف أمام باب المنزل. كما أنه أخذ يزيحه مرارًا بعيدًا عنه عند إخراجه للقمامة بالخارج (هو من ذهب بنفسه للخارج). بعد ذلك بقليل حل المساء وعندما نظر للسماء اندهش للغاية حيث وجد أن نجمي رأس التوأم المقدم ورأس التوأم المؤخر الساطعين يبدوان متباعدين عن بعضهما، ظهر كوكب الزهرة لامعًا في السماء كما بدا نجم الدبران متألقًا. تباعد طرفا برج ذات الكرسي الذي تتراص نجومه على شكل W، أما برج العربة الكبيرة فبدا قضيب الجر بها منحنيًا في حين أن كوكبة الأرنب النجمية تحاول الهرب بشكل أفقي في السماء أمام كوكبة أوريون. كانت مجرة درب التبانة وفروع دلتا العديدة الممتدة منها هي الانعكاس الشاحب للوميض الأوَّلي للكون.

كان شعور «طول الوقت» غريبًا في سوريا أثناء فصل الشتاء؛ بعد انقضاء اليوم الأول من الكتابة رأى نهر الدويرة بالأسفل وهو يفكر: «ها هو هناك، نهر الدويرة العجوز» هكذا رآه عندما مر عليه في جولته أثناء عطلة نهاية الأسبوع وضيعها في حانة ريو ووقف أمام الفرن الحديدي الصغير بها. لم يعد يزور تلك

الأسطوانة الرمادية منذ فترة طويلة للغاية، فكر أنه مر بالكاد أسبوع من لحظة وصوله إلى محطة القطار ومروره عليه: «هنا ركلت حقيبتي في المطر!» سمع نقيق ضفدعة تقف بين العشب في البادية بالأسفل أثناء دويّ العاصفة. قبل أن تقع أوراق شجر الدلب انكسر الجذع في البداية وتيبس وأخذ يدور على الحافة. أخذ الديك يتحرك داخل الحديقة الطينية حيث كان يلتقط الطماطم غير الناضجة الملقاة على الأرض، هل كان ريش رأسه ينمو للأسفل أم كان ذلك تأثير الرياح؟ كان على رأس الحيوانات التي لفتت انتباهه هنا بصراحة تلك الكلاب التي رآها في المساء تعرج على قوائمها الثلاث وهو تائه في طريقه للمنزل. عادة ما كانت ساقه أيضًا تصاب بالتواء في نهاية الأيام التي يتجول فيها. مرة أخرى شعر بخيبة أمل عندما ذكرت إحدى الصحف أن سوريا ليست المدينة الأكثر برودة في إسبانيا. كان هناك في الشارع الرئيس أصيص مليء بزهور عيد الميلاد حمراء اللون أسفل أوراق الدلب الرطبة الخضراء التي لم تقع بعد حتى الآن. لم تجف مطلقًا برك المياه حول ذلك الحوض المنخفض الذي تقبع بداخله جذور الشجر. اصطبغ الضباب بلون رمادي داكن، مما يجعل الشرانق البيضاء الكبيرة عرضة لهجمات الديدان ذات الفك الإبري التي تخرج من أشجار الصنوبر. أمطرت السماء بغزارة في يوم عيد الميلاد حتى إنه لم يرَ أثناء سيره في جولته في المدينة أحدًا غيره في الشارع هو وعصفور وحيد. بعد ذلك

رأى شخصًا يخرج من سجن المقاطعة دون مظلة، كانت امرأة صغيرة في السن للغاية ومعها ابنها الكبير توجها عبر الحقل الطيني إلى نقطة طوارئ عسكرية مفتوحة هناك، تخيل هو أن لديهم أحد أقاربهم خلف تلك الأسوار الشاهقة، ربما كانوا يزورون أحد الباسك الذين شاركوا في اضراب الجوع وسيعتصمون هنا حتى يتم إخلاء سبيله. كان البرق يومض فجأة في السماء بين الحين والآخر بين زخات المطر التي انهالت بقوة على جبهته وذقنه. عندما نظر وجد سيارة بسقف خارجي أبيض اللون وفي الأعلى في سواد الليل تتمايل بضع نُدفات الثلج أثناء سقوطها. أخذ يفكر ومن ثم قال «Nieve ثلج» خرجت أولى كلماته بالإسبانية بعفوية. صاح أحدهم فجأة في إحدى الحانات بأغنية على أنغام الفلامنكو في سعادة وثقة دون تلك النغمة العبثية الغجرية المعتادة وبطريقة تعبير ثابتة. مرة أخرى تخيل: أخيرًا ها هي الطريقة المناسبة لغناء أغنية عيد الميلاد ولكن بالإسبانية «navidad»، أخذ أحد الرعاة يحكي عما عايشه في تلك الليلة المقدسة وبالطبع جاءت حكايته في شكل رقصة. مثل أي مكان بالعالم رأى المارة يفتحون مظلاتهم الجاهزة دومًا للاستخدام مع سقوط أول قطرة مطر، غزت الموضة أيضًا هضبة ميسيتا فكانت الفتيات الصغيرات ينفخن في خصلات الشعر التي تتدلى على جباههن عند دخولهن أحد المطاعم. اختلط صوت الرعد بصوت الريح في منطقة أشجار الحور على نهر الدويرة، كان

يشبه هدير الطائرة عند بداية الإقلاع (لم يسمع أحد ذلك الصوت إطلاقًا تقريبًا أعلى المدينة) أخذت دجاجة كبيرة تنقر باهتمام عرف ديك صغير يقف على ساق واحدة على القاذورات. كان هناك بأعلى شجرة اللوز العارية كليًا من الأوراق فرع وحيد ظهرت عليه البراعم البيضاء. ظلت غالبية الشرور التي عرفها في محيطه المألوف -بما في ذلك تلك الشرور بداخله هنا- مستوطنة عن بعد مثلما كانت حاله قبل البدء في الكتابة إلا أنه تمكن على المدى الطويل من الشعور بالحياة والذي لم يتولد مما كان غائبًا. ذلك الشعور الذي انتابه هنا في سوريا. كان هناك جليد على جذور الشجرة التي امتدت بعيدًا. وفي لحظة انفجر شيء بالخارج بينما يجلس إلى الطاولة سمعه وكأنه ناقوس معبد. في النهاية رأى أنه مر على كل ركن في المدينة تقريبًا (لقد حفظ تلك الزوايا وكأنها مفردات) ربما دخل مئات المنازل. قد اتضح من خلال تسكعه الدقيق أن بسوريا الصغيرة ما يزيد على مئة حانة بالإضافة إلى تلك الحانات في الممرات المتقاطعة، وكانت أحيانًا دون لافتة للمكان مثلما هي الحال في الكثير من المحال الإسبانية البعيدة عن الأنظار والتي لا يعرفها سوى سكان المنطقة. كان مرارًا وتكرارًا يجد على الجدران بجانب إعلانات مواسم الصيد وصور الماتادور (مصارعي الثيران) قصائد لانطونيو ماتشادو. كانت تبدو كنتيجة حائط ظهر عليها تأثير الطبيعة فكان بعضها يبدو أنه قد تم كحته، كانت هناك رسمة لصليب معقوف. بدا الأمر

له أنها لم ترسم للأسباب المتعارف عليها وإنما لأنه تم اختيارها لتزيين الحائط لا غير. الشيء الداعي للاندهاش هو كيف أن الكثير من الحانات كانت مخصصة للشباب فقط وحصريًّا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ وأنه يتم حرفيًّا منع كبار السن من دخولها، الذين يسمح لهم فقط بدخول حانات العجائز (مع طاولة فيٍ الزاوية للسيدات العجائز). ووفقًا لما هو واضح فهذا يعد فصلًا يفوق بقوة أي فصل سياسي مماثل. يظل معظم المتقاعدين على المعاش في عاصمة تلك المقاطعة ليقضوا فيها ما تبقى لهم من العمر، وعندما يتواجدون في الحانات الخاصة بهم يقومون بلعب الورق أو يجلسون في صمت إلى الطاولة أو ينبشون ويبحثون دون توقف عن شيء ما في الأماكن من حولهم. الصغار والكبار وهو أيضًا، الغريب عن المكان معهم، كانوا كلهم يبدون على السواء شاحبين وواضعين أياديهم الشتوية كافة على البار الموجود بالحانة، في حين ظهرت على سبيل المثال في ضوء المصباح بالخارج تلك الخدوش في الجدار الخرساني خلفهم من أثر سقوط السقالة الفولاذية هناك والذي أودى حينها بحياة اثنين من المارة.

بالإضافة إلى رغبته في تغيير تلك الأماكن التي تبدو متشابهة من حيث شكلها الخارجي فقد دفعته أيضًا رغبته في إيجاد جهاز مشغل موسيقى في سوريا، ربما كان ذلك في البداية إكراهًا، ولكن رغبته تلك تزايدت الآن أكثر وأكثر ربما لأن الآن قد يكون هو

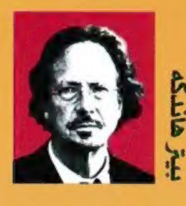
الوقت المناسب لإيجاد آلته الموسيقية: العمل، الشتاء، الأمسيات بعد السير في طرق طويلة وأمطار غزيرة. فجأة سمع في مكان بعيد بالخارج بالقرب من الطريق السريع في اتجاه مدينة بلد الوليد صوتًا عميقًا يخرج من حانة على الطريق هناك، إلا أن ذلك الصوت لم يكن بكل تأكيد سوى صوت طاولة الكرة والدبابيس (هي الشكل البدائي للعبة البلياردو). رأى في الحانة الملحقة بمحطة الوقود كلمة ورليتزر على ماكينة السجائر، وفي مكان بعيد بالخارج -في مبنى متهدم بكاسكو مركز مدينة سوريا لا شيء حوله سوى الحطام- رأى في حانة على الطراز الأندلسي لوحة الاختيارات لمشغل موسيقى عتيق الطراز يحمل علامة ماركوني -والذي مثّل البداية لسلسلة مشغلات الموسيقى- موضوعًا على الحائط كقطعة ديكور. كانت المرة الوحيدة التي يلتقي فيها في سوريا بجهازه وجهًا لوجه في سينما ريكس والتي كانت تعرض فيلمًا باللغة الإنجليزية يرجع لبدايات الستينيات. حينها وجده في غرفة خلفية في انتظار اللحظة التي يمر فيها البطل من أمامه وهو في طريق للمرحاض. كان ذلك جهاز مشغل الأغاني الوحيد الذي لا يزال باقيًا على قيد الحياة في إسبانيا إن جاز القول، والذي كان من ليناريس بمنطقة أندلسيه. في ذلك الوقت أيضًا في الربيع كان بحاجة إلى مثل ذاك الجهاز وسط أجواء العمل وضجيج عيد الفصح. ذلك المشغل الذي رآه بمحض الصدفة قبل فترة قليلة من مغادرة المكان وبعد أن استسلم وتوقف عن البحث منذ

فترة طويلة استقبله في قبو موجود بشارع جانبي. حانة بحجم غرفة الخزين لا يوجد بها أي نوافذ. لا شيء سوى الباب. تفتح بشكل غير منتظم ومتى! في الليل فقط، كما أن اللافتة الخاصة بها غير مضاءة في الغالب. فتح الباب فقط ليجرب لربما وجد شيئًا استثنائيًّا يعمل. كان مالك تلك الحانة رجلًا كبيرًا في السن (لم يكن يشعل إضاءة المكان الرئيسة إلا في حالة وجود زبون). كان وحده مع مشغل الأغاني. والغريب في الجهاز أن كل لوحات الاختيار كانت بلا أي كتابة عليها تشبه لوحة الجرس الموجود أسفل المنازل الشاهقة من دون أسماء. ومثل ذلك المكان بأكمله كان يبدو من مظهره مغلقًا ولا يعمل. كان هناك فقط مزيج من الأرقام والحروف وحدها على تلك اللوحات الخاوية، إلا أن الحائط كله كان مغطى بشكل طولي وعرضي وصولًا إلى السقف في كل مكان بأغلفة لأسطوانات موسيقية مكتوب عليها بخط اليد كودها بجانب العنوان. وبهذا عندما كان يتم تشغيل الجهاز حسب الطلب يمكن وضع الأسطوانة المرغوبة داخل أحشاء الجهاز الخاوية فيلتهمها وتبدأ حينها في الدوران والتشغيل. شعر برحابة من حوله مع ذلك الأزيز الرتيب الذي ينبعث من الصلب في أعماق الجهاز داخل ذلك المخبأ الصغير. كان الهدوء يخيم بشدة على ذلك المكان في خضم الحماسة الإسبانية وحماسته. كانت الحانة في شارع كال كيرفانتي في بلدية ليناريس وأمامها على الناحية المقابلة دار السينما المهجورة وما تبقى من كلمة Esterno

العرض الأول وتلك الكرات المترامية من أوراق الصحف والفئران في ذلك المدخل المغلق بالقضبان، في الوقت الذي تزهر فيه أزهار الكاموميل في البادية خارج المدينة، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا على مقتل مانويل رودريغيز المعروف باسم مانوليتي بعد أن طعنه ثور في ساحة حلبة مصارعة الثيران في بلدية ليناريس. بعد بضع خطوات أسفل الحانة التي كان اسمها الشعار ElEscudo يوجد مطعم صيني والذي كان أحيانًا ما يمثل لذلك الغريب هنا ملاذًا للهدوء يشبه في تأثيره مشغل الأغاني. حتى في سوريا أيضًا تفاجأ بوجود مطعم صيني والذي بدا من الخارج وكأنه مغلق لكنه عندما فتح الباب وولج للداخل أضاءت تلك المصابيح الورقية المستديرة. كان هو الزائر الوحيد في المطعم في تلك الأمسية، لم يرَ مطلقًا في المدينة تلك الأسرة الآسيوية التي تناولت الطعام هنا على منضدة طويلة في الزاوية ومن ثم اختفت داخل المطبخ، لم يبقَ منهم سوى تلك الفتاة التي كانت تخدمه في صمت. كان هناك على جدران المطعم صور لسور الصين العظيم والذي استلهم منه المطعم اسمه. الأمر الغريب هو أنه عندما كان يضع الملعقة الخزفية داخل وعاء الحساء داكن اللون كانت حبوب الصويا فاتحة اللون تظهر بالأعلى وكانت الحال هنا في ربوة قشتالة أشبه بشخصيات خرجت من فيلم كارتوني وأخذت أغصان شجر الحور تنقر في النافذة أثناء هبوب العاصفة في الليل. أخذت الفتاة الصغيرة التي لم تكن تفعل شيئًا

آخر حينها تلون على الطاولة المجاورة له الرموز الصينية واحدًا أعلى الآخر في كراسة بخط منمق ومنتظم أكثر من خطه طيلة تلك الأسابيع (لم يكن هبوب الرياح أو هطول المطر والظلام أثناء تدوينه للملاحظات في الهواء الطلق منذ أن بدأ في الكتابة هنا وحدهم السبب في مثل ذلك الخط) وبينما لا يزال دومًا ينظر إليها، وهي التي بكل تأكيد تبدو بلا أي مجال للمقارنة أجنبية في تلك المنطقة وفي هذا البلد أكثر منه، أحس إحساسًا تخالطه الدهشة أنه الآن فقط ارتحل بالفعل عن ذلك المكان من حيث أتى.





كان مُشغل الأغاني بالنسبة له هو رمز الهدوء، أو السبيل للراحة والجلوس في سكينة دون حراك، وحتى دون نفس. لا يُخرجه من تلك الحال سوى خطواته المحسوبة، التي تحتفي بتوجهه للضغط على زر التشغيل. لم يكن أبدًا ليخرج عن ذلك الوقار فتتملكه الحماسة أو تراوده أحلام وخيالات اليقظة وهو ينصت إليه، وخاصة عندما يشغل الموسيقى التي يهواها، تلك الكلاسيكية الخالصة التي تأخذه معها إلى فترات زمنية سابقة. وعندما تنساب الموسيقى من قلب الجهاز كان يشعر بنشوة لم يشعر بها إلا لاحقًا في لحظات الحب. ذلك الشعور الذي لم يستطع توصيفه سوى بعد مرور ربع قرن على تلك اللحظة: لقد انغمستُ وذُبت في الموسيقى. وحتى ذلك التوصيف لم يكن مطابقًا كليًا لمكنونات مشاعره.

بيتر هاندكه: كاتب وروائي ومسرحي ومترجم نمساوي، ولد عام 1942، وفاز بجائزة نوبل للآداب 2019.

انطلقت شهرته عام 1966 مع نشر روايته الأولى، وأصبح نجمًا في الأوساط الأدبية المتحدثة بالألمانية مع نجاح مسرحياته خلال ستينيات القرن العشرين.

فاز هاندكه بالعديد من الجوائز الكبرى وأثار الجدل في العديد من المواقف والأوقات، وعلى مدى سنوات طويلة ظل يذهل محبي الأدب بأعماله التي تبرع في تصوير المشاعر الإنسانية وتبدع في مقاربة مكنونات العقول والقلوب.




ISBN 978-977-821-130-6
9 789778 211306